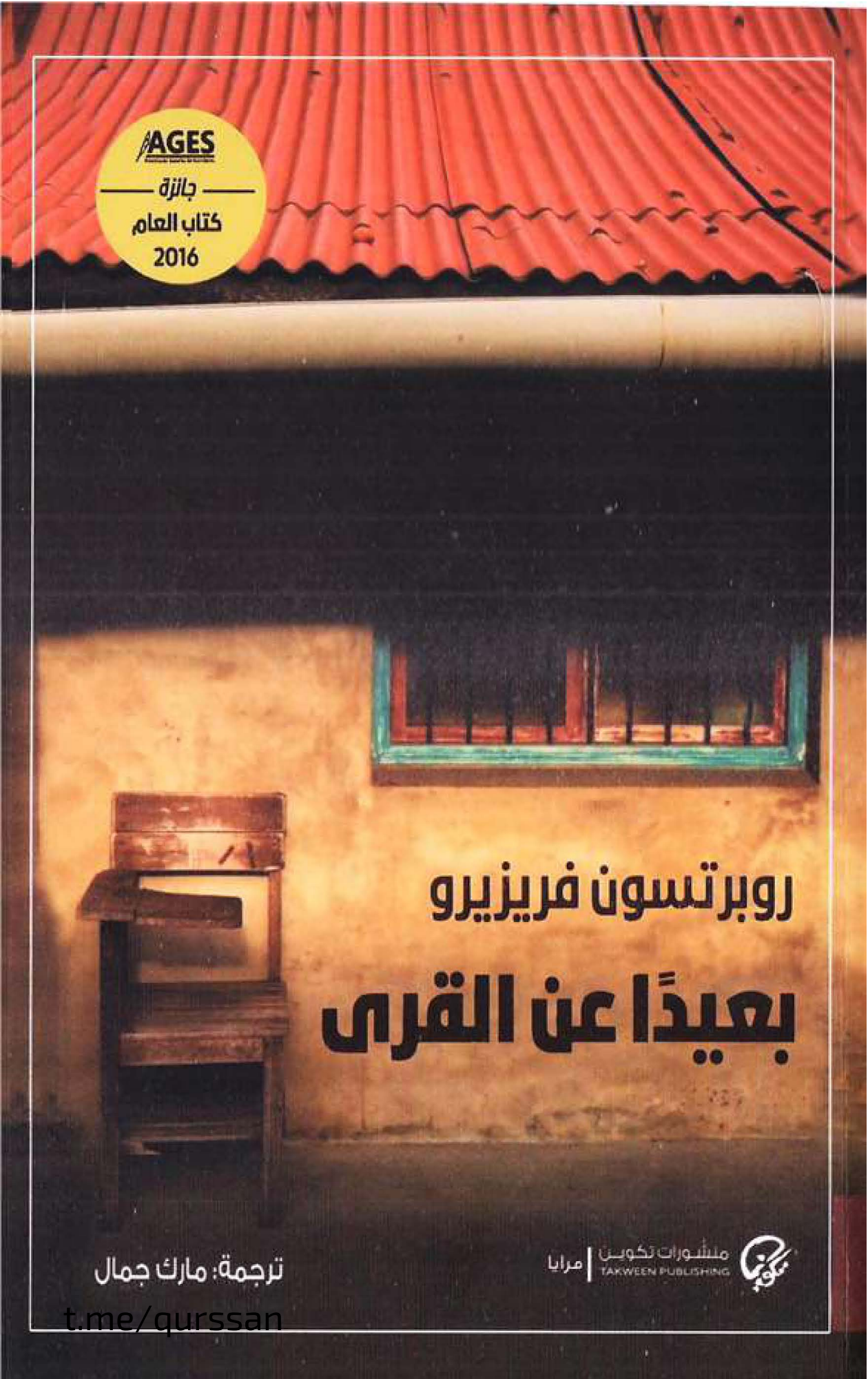

AGES
جائزة
كتاب العام
2016
روبرتسون فريزيرو
بعيدًا عن القرى
ترجمة: مارك جمال
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

t.me/qurssan

t.me/qurssan

روبرتسون فريزيرو

بعيدًا عن القرى

رواية

ترجمها عن البرتغالية

مارك جمال

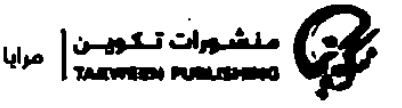

t.me/qurssan

الكاتب: روبرتسون فريزيرو
عنوان الكتاب: بعيدًا عن القرى
ترجمة: مارك جمال

العنوان باللغة الأصلية: Longe das Aldeias
الكاتب: Robertson Frizero

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-52-6
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2020
2000 نسخة

Copyright © 2015 by Robertson Frizero
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

t.me/qurssan

إلى إيمانويل،

t.me/qurssan

t.me/qurssan

«إنما الذاكرة هي المرآة
التي نرى فيها الغائبين».
جوزيف جوبير

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بالأمس عادَت أمي إلى السفينة. تشبَّثَت يدها بذراعي بقوة، واختلط الأمر في رأسها، فشقَّ عليَّ إقناعها بأنه لم يكُن هناك لا محيط، ولا خطر، ولا طفل صغير. في غمرة يأسها، رأيتُ بيتَر متهالكًا، ورأيتُ جدِّي ينخره الشعور بالذنب، ورأيتُ جدران المستشفى التي بدَت عليها آثار الرصاص، ورأيتُ الخالة ميرنا تُطبِق على أنفاس أعداء يحتضرون. أما مهد الحظيرة المصنوع من القشّ، الوثير كغفلتي، فقد استقرَّ على متن السفينة الذي خيَّم عليه الضباب. فقدَت أمي السيطرة على العواصف، مُتشَبِّثةً بالدرابزين، مُعذَّبةً.

وبلغة أرضها الغريبة، راحت تصرخ باسم أبي الذي لم أحظَ به قطُّ: جوزيف، أو شيء من هذا القبيل. للحظة، تلاطمَت أمواج بحر أمي على نوافذ الحجرة بقسوة. أما هي، فهدأت وراحَت في سباتها المحموم، ناسيةً أمري. بينما ظلَّت السفينة التي غشيَها السديم هناك لوقت أطول، راسيةً في مخاوفي.

t.me/qurssan

وعاد أبي هو الآخر، عاد رجلًا بلا وجه، لا أملك نسيانه. كانت أمي باسمةً، مريضة. ولقد أشعرني غيابها بالغيرة. أخذني الدوار بدلًا منها طوال البقية الباقية من الليل، واسم أبي ساهرٌ في يقظتي. لطالما تركَت الذكريات في فمي مرارةً وفي قلبي خواء.

لستُ على يقين من أيّ شيء.

t.me/qurssan

أتخيَّل عينَيّه كعيون غيره من شباب الأرض التي وُلِدتُ عليها. لم أرَهما قطُّ، لا في وجهه ولا حتى في وجهي أنا. لستُ على يقين من شكل عينَيّه، ولستُ أدري ما إن كان قد أصابهما الذبول. ولكن هاتين العينَيْن الرجوليَّتَيْن -لم أعرف يومًا ما إن كانت عيناه تشعَّان حنانًا أم قسوة- تلاحقانني منذ أولى ذكريات الطفولة.

لطالما أبحرَت خواطري بحثًا عن هاتين العينَيْن في وجوه أهل ذلك الوطن البعيد، الذي يفوقني غربةً، ذلك الذي لا تسلَّقتُ جباله ولا احتفلتُ بأقماره يومًا. وإن كانت لديَّ تلك الوجوه الشمعية، الرصينة للغاية، التي تشرف علينا من ثلاث صور عتيقة، وتضفي قتامةً على منضدة الزينة. إنها كل ما تبقَّى من الهروب المُتعجِّل. أرى في الصور جدَّتي، والطفلة التي كانتها أمي ذات يوم. تمسكان بيد خالتي ميرنا الصغيرة وهي ترتدي ثوب الأعياد وتكاد لا تستطيع الوقوف على قدمَيْها. وفي الركن الآخر من المرآة، على ورق خشن، استقرَّ جدِّي وقد تآكل وجهه الذي ترك عليه السفرُ آثاره. في

t.me/qurssan

بيتنا، تجري الدموع حزنًا لموته، ولكني لم أفتقده قطُّ. في ذكرياتي المُختلَقة، لستُ أرى يدَيْه الخشنتَيْن إلَّا وهما تصفعان أطفالًا وُدَعاء، أو تحملان مارية في تهاون، وهي لا تزال طفلة صغيرة. على عنقه، تبدو أمي وكأنها قد وُلِدَت ميتة. أما صورة خالي بيتَر المُمزَّقة، التي لم يبقَ منها إلَّا شطر واحد، فقد أورثَتني الذعر حقًّا مدى الحياة. لطالما أحبَّت أمي شقيقها الأصغر حبًّا جمًّا. حتى إن ساقَيْه المُصفرَّتَيْن تحت السروال القصير تكفيان للتخفيف من شعورها بالوحشة. ولكني ما زلتُ أخاف الأطفال من أمثاله، أولئك الذين لا جذع لهم ولا ابتسامة.

لا يبدو لأبي أدنى أثر بين الأشباح. فنظراته غائبة عن الصور المُعلَّقة على المرآة. ومن بين تلك الوجوه المخيفة، المُطلَّة من الورق ـ تلك التي أورثَتني الذعر مدى الطفولة ـ حاولتُ استخلاص نظرة أبوية، سواء أكانت نظرة براءة، أم فتور، أم صلابة. ولكن لا مُتَّسع لزرقة عينَي أبي في الألوان الضبابية التي غشيَت تلك الصور التي كانت أمي تقدِّسها وكأنها في هيكل. تلك الصور المُقدَّسة الباهتة، المُعلَّقة هناك على رجاء أن تتحقَّق المعجزة، جعلَتني أتخيَّل أبًا أكثر ملائكيةً وأعظم قدرةً.

t.me/qurssan

أخشى ألا أتمكَّن من كتابة هذه الأسطر الوحيدة قبل رحيل أمي الأخير. قرب الفراش الذي ترقد عليه الآن في نومها المضطرب القصير، قرَّرتُ إعادة تمثيل حياتها الحزينة.

لا أعلم عمَّا أودُّ روايته إلَّا قليلًا. لا أعرف إلَّا ما سمعتُه من شفتَي أمي، مُجرَّد شذرات من الحكاية، تلقَّفتُها في لحظات الحنان القليلة التي تخلَّلَت طفولتي. كما تعلَّمتُ أمورًا عن أمي من خلال الشعور الجارف بالذنب الذي كان يداهمها بعد كل نوبة من نوبات الغضب الشديد عليَّ، وأنا في سنوات مراهقتي الهادئة. وهأنذا اليوم ألملم نوبات الهذيان الدامعة في شيخوخة أمي المُبكِّرة. ولذا أخشى ألَّا أكون منصفًا إذا رويتُ الشقاء الذي قوَّض أمي، مع أنه كان السبب في لقائها أبي. في كل كلمة من كلمات هذه القصة التي لم تكَد تنساها، ألمس عذابها الهامس. ليس بالأمر الهين أن أقف على تلك الحقائق وأعرف كيف حبلَت بي أمي وسط فوضى الحرب. عند ذاك، ألوذ بالخيال. إذ لم يبقَ لي سواه من أجل استرجاع ماضيَّ،

t.me/qurssan

متواريًا بين الذكريات الأشد إيلامًا. ولو ابتدأتُ حديثي بعينَي فتى الأرياف المعوز، ابن أرضي، فالسبب أني لا أعرف عن أبي المزيد. كان شابًّا، قرويًّا، استُدعِي إلى المشاركة في النزاع، امتثالًا لأوامر التجنيد الإجباري، شأنه في ذلك شأن كثيرين من أترابه. وها هي الأنباء الواردة من ذلك البلد البعيد الناهض مرةً أخرى تخبرني عن نفسي أكثر مما كنتُ أودُّ سماعه، بعد قرابة عقدَيْن من الزمان.

لطالما ذكرَت أمي ذلك الطفل الساكن في عينَي أبي الزرقاوَيْن كسماء خلَت من السحب. ولقد حيَّرتني تلك الصورة حتى يومنا هذا. في وسعي أن أتخيَّل عينَيْن مفعمتَيْن بأحلام الحصاد، والزواج، والذرية الصالحة، والسعادة البسيطة الهانئة. وحين أشعر بالضيق، أتمكَّن من رؤيته وقد أخذَته دورية المركبات التي كانت تمسح البيوت الريفية الصغيرة، الأشدَّ فقرًا وضعفًا. كانت قوافل من الجحيم، تزحف على البيوت بحثًا عن الشباب حتى ينتزعوهم قسرًا من حماية آبائهم، من دون إحداث جلبة عارمة. يمكنني الإحساس بنظرات الفزع المرتسمة على وجهه حين وقع أسيرًا بين أيدي قوات الجيش، أو نظرات الوحدة التي استحوذَت عليه، بينما كان مُتجهِّمًا، حزينًا، بعيدًا عن قريته، مُحاطًا بالغرباء الذين انتُزِعوا من ديارهم أيضًا. وفي صمت الاستبداد الواقع عليه، أتخيَّل أبي حزينًا، عيناه مُلبَّدتان بالحنين. وإن لم أفهم يومًا أمر ذلك الطفل الساكن في عينَيه. ربما كانت أمي هي الوحيدة التي استطاعَت رؤيته، هي وحدها بقناعاتها التي لا تلين.

t.me/qurssan

لم أرِث عن أبي جمال العينَيْن ولا دكنة الشعر، «الذي لم يُرَ في العالَم بأسره شعرٌ أشدُّ منه سوادًا، في أيِّ وقت»، طبقًا لِما كانت تقول أمي على الدوام. أما أنا فكان من نصيبي شعرٌ زاهي اللون وعينان لوزيَّتان لم أرثهما عن أمي ولا جدِّي ولا جدَّتي ولا خالتي ميرنا. ربما ورثتُهما عن خالي بيتَر. لطالما حاولتُ الملاءمة بينهما وبين هاتين الساقَيْن النحيلتَيْن تحت السروال القصير الذي يرتديه الطفل صاحب الصورة المُمزَّقة. في ظنِّي أني لم أرِث عن دم أبي الذي لم أعرفه إلَّا تقاسيم وجهي الحادة، وبعض الطباع الشخصية التي قد لا تعرفها سوى أمي.

لم أكُن يومًا على يقين من أيِّ شيء. كانت أمي تعاقبني كلما سألتُها لماذا لا أشبهه، لماذا لا أشبه جوزيف، فتصفعني بين صيحات وأدعية، ثم تربِّت على خصلات شعري المُجعَّدة المائلة إلى الشقرة، وتقول إني أذكِّرها بأبي، إلى حدٍّ هائل، ثم تبتعد عني وهي تدفن وجهها بين يدَيْها.

t.me/qurssan

كنتُ أبتسم، بليدًا، سعيدًا. فالإشارة إلى ذلك الرجل البعيد لا تلبث أن تضرم قلبي، وتنسيني ظلم العقاب، ودموع أمي المحجوبة بعد أن فقدت السيطرة على نفسها. ما كنتُ أعرف شيئًا. بالكاد كنتُ أهرول إلى الباب، وأترقَّب في لهفة، أترقَّب رؤيته وهو يترجَّل من الحافلة في الجادة، ثم يقطع الشارع، مُتعبًا، مُشتَّتًا، كما يصل آباء جيراني قبل أن يهبط الليل. ولكن حافلات شارعي لم تمر بساحات القتال يومًا.

لا ترى الخالة ميرنا سببًا لقلقي، مع أن أمي نسيَت اسمي صبيحة اليوم. بدوتُ لعينَيها بيتَر، فقالَت لي إن جدِّي سوف يضربني ما لم أنتهِ من جمع الخراف مرةً وإلى الأبد. ابتسمَت الخالة ميرنا، في حنين، وأدارَت يدها بإصرار، وهي الإشارة التي اتَّفقنا عليها لمسايرة أمي في ذكرياتها.

عندئذ قلتُ لمارية إن الخراف نائمة في الحظيرة. فنعتَتني بالكاذب، ثم عنَّفَتني وقد اتَّقد الغضب في عينَيها وهي تضربني على وجهي بقوة صائحةً: «ما زلتُ أرى الخراف من مكاني». كرِهتُ معاندة خالي بيتَر وامتناعه عن الامتثال للأوامر فور تلقِّيها.

ذهبتُ أرعى القطيع جالسًا في شرفة البيت، وأراقب أولئك الذين ضاقوا بالقيظ العنيف الآتي من الأسفلت. أثرتُ استفزاز الخالة ميرنا، صائحًا: «لا أعجب لهرب الخال بيتَر من البيت!».

الثلج أخفُّ برودةً من أمثال جدِّي، ولا بد أن خالي قد تعمَّد التيه في الغابة المُثلَّجة. تخيَّلتُ الطفل وهو يسير في سعادة، بساقَيْه

t.me/qurssan

الهزيلتَيْن، مُتوغِّلًا في رحابة حريته البيضاء. أمضى جدِّي سبعة أيام وسبع ليالٍ وهو يحاول العثور على خالي، في مهبِّ أعتى العواصف الثلجية. كان حريًّا به جمع الخراف الشاردة بنفسه.

وحين رأيتُ بيتَر مختبئًا في أحد الكهوف، سمعتُ صوت الخالة ميرنا وهي تدعوني حتى ألبِّي نداء أمي. هرولتُ إلى داخل البيت، فوجدتُها وقد سقطَت على الفراش، تكاد تكون محمومة. بكَت طويلًا وراحت تناديني باسمي، ما عادَت تناديني باسم بيتَر. اجتاحَت الشمس الحجرة، بينما جعلَت أمي تنتفض في توتُّر، وتتوسَّل كي لا يُنتزَع من بين ذراعَيْها إيمانويل الصغير.

t.me/qurssan

ليس لي أشقاء. وما زلتُ لم أستقر على رأي، فلم أدرِ ما إن كنتُ أرغب في أشقاء. قد يكون من المفيد لنا الاستعانة بذراعَي رجل آخر لمؤازرة أمي في لحظات النوبة. وإن أزعجَتني فكرة النزاع الذي كان سينشأ بيني وبين شقيق آخر منذ الصغر، والاختصام على انتباه أمي الضعيف من الأساس. كانت طفولتي حافلة بالذعر، الأمر الذي لم أودُّ لشقيق أن يمرَّ به. من الصعب تفهُّم تلك الأمّ التي يتراوح حالها بين الغضب العارم والعطف الحامي الذي يُطبِق على الأنفاس بأشدّ من كل ما عداه. حتى قبل ظهور أعراض المرض، لم أكُن أدري مَن تخالني أمي قطُّ. وما زلتُ لا أدري ما إن كنتُ أودُّ رؤية شقيق لي وهو يتكبَّد الظنون الغريبة نفسها.

لم أُرِد أن تكون لي شقيقة يومًا.

t.me/qurssan

أعرف أنا والخالة ميرنا ذائقةَ أمي وعاداتها كافة. لطالما حاولَت الخالة إقناعي بدراسة الدليل الصغير الذي يتناول مرض أمي، ذلك الدليل الذي تلقَّته على سبيل الهدية من حبيبها المُمرِّض. كانت تقول: «قرأتُ في الكتاب الأخضر الصغير أن الحفاظ على الوضع الطبيعي هو وسيلتنا حتى نضمن ألَّا تموت مارية كما نعرفها أبدًا». لا أعرف عن أمي القدر الكافي للتفكير بهذه الطريقة، ولكني أؤدِّي طقوسها المعتادة. ألفتُ قدح الماء البارد الذي تشربه على معدة خاوية، والساعات التي تهدرها في ريِّ كل نبتة من نباتات البيت. وأتحمَّل رأسها الذي تستره بالحجاب دومًا، وآراءها التي لا تتبدَّل في الكائنات والأشياء. تعلَّمتُ تبجيل ربِّها، ربِّ الأقدار المكتوبة سلفًا. فليس هناك ما يدعو إلى الإفراط في الجدال ولا المعاناة. بمضي الوقت، بدأت أعزو إلى مرض أمي أمورًا كنتُ أعتبرها من قبيل الاستهانة أو الفتور.

لطالما أحبَّتني على طريقتها. كانت تجهِّزني في النهار الباكر لئلَّا

t.me/qurssan

أصل مُتأخِّرًا إلى المدرسة، وتتحقَّق ما لا يقلُّ عن ثلاث مرات من تغليف الغداء بإحكام ومن خلوِّ الزيِّ المدرسي من البقع، وتتأكَّد أنني لم أُخفِ شيئًا من الثياب أو النقود في حقيبتي. إذ كانت تخشى أن أهرب من البيت، كما فعل الخال بيتَر. عمَّدَتني على دِين أبي، مدفوعةً إلى ذلك بالحبِّ أيضًا، وكانت ترغمني على الذهاب إلى الكنيسة أيام الأحد، وإن لم تكُن هي نفسها قادرة على ذلك. حملَتني على اختيار شفيع من بين القديسين، والصلاة من أجله كل ليلة بينما هي تتمايل برأسها على إيقاع ابتهالاتي. ولكنها كانت تتوارى عن عينَيَّ لأداء فروضها الخمسة يوميًّا. أرادَت تنشئتي مسيحيًّا، وعلى الرغم من ذلك حرَّمَت عليَّ أكل لحم الخنزير وشرب عصير الكروم.

أحيانًا تكون مفعمةً بالمودة، فتتعرَّف عليَّ أمي وتطلب مني أن أحمل أيقونتي التي تصوِّر القديس ميخايلو إلى حجرتها. أحتفظ بالأيقونة مع كتب الطفولة. تقول أشياء عذبة ملؤها الأمومة، وتعتذر عن ضعفها، وتعدني بأنها سوف تكون على ما يرام في اليوم التالي، وتعود إلى الخياطة كي تشتري درَّاجة جديدة من أجلي. ثم إنها تطلب مني تقبيل رأس القديس وجناحَيْه، بينما هي تردِّد كلمات مُتهدِّجة، من إحدى التلاوات المسيحية الشاردة في ماضيها. تبتسم راضية كلما أدَّيتُ الطقوس الخاصة في غير شكوى: «سيفرح جوزيف متى علم أني أحسنتُ تربيتك على دِين ربِّه، وأنك نشأتَ رجلًا شريفًا كما كان أبوك شريفًا معي».

فليكُن.

t.me/qurssan

حكَت لي الخالة ميرنا كيف رحلنا عن هناك على متن سفينة بضائع، من دون أن يزعجنا أحد طوال الرحلة.

بقيَت مارية معي، تهدِّئ من روعي وأنا في حضنها، في حين نزعَت خالتي الحجاب عن رأسها وتحدَّثَت إلى حارس المحطة بكلام لا تشوبه لكنةٌ أجنبية. فصدَّقها حين ابتسمَت خجلى، سائلةً، وهي تتلمَّس ذراعه المفتولة العضلات. وبعد أن ربَّتت على ذراعه وهو يقف وقفته المُرتجَلة الخليقة برجل قوي، أفلح الجندي في الحصول على مخبأ من أجل ثلاثتنا على متن القطار العسكري المُتّجه إلى الساحل. وهكذا استطعنا اجتياز منطقة النزاع قبَيْل وقف إطلاق النار.

كان على متن القطار أعداء خالتي ميرنا وأمي، الأعداء المحتضرون الذين لحقَتهم الجروح في المعركة. أما هما فانزوَتا على نفسَيْهما في ركن من أركان عربة القطار، حيث كان الخوف من الإصابة بالعدوى أهون إذا ما قُورِن بالخوف من افتضاح أمرهما،

t.me/qurssan

وهما الهاربتان. أما الرجال الذين استسلموا لأقدارهم، فجعلوا يتأوَّهون وينتحبون، إما كمدًا وإما حنينًا. كثيرًا ما خطر على بال الخالة ميرنا أن ترديهم جميعًا قتلى، وهم نيام، أن تقتل المصابين. سوف يكون الإطباقُ على أنفاسهم يسيرًا، وجزاءً عادلًا عن الألم الذي تسبَّبوا فيه. ولكن مارية توسَّلَت إليها كي لا تفعل شيئًا، فهم بؤساء مساكين، وأمارات الهجران المرتسمة على وجوههم تشبه تلك التي كانت على وجه الخال بيتَر بعد انتشاله من الكهف. في السرِّ، كانت أمي تأمل العثورَ على عينَيْن زرقاوَيْن، دون سواهما، وسط أشباه الموتى.

بلغنا المرفأ فجرًا، والأطباء العسكريون يترقَّبون على المرسى لإحصاء عدد الخسائر في الأرواح خلال الرحلة. كان المصابون كثيرين، فلم يحفل بنا أحد. شعرَت أمي بالخوف من البحر الذي كانت تراه لأول مرة آنذاك. وفي فوضى انتشال الحالات الأشد خطورة بين الجرحى، سقطَت أمي على الأرض، تاركةً على صدغي تلك الندبة الصغيرة. غير أني لم أبكِ.

بسقوطها، دفعَت أمي ثمن الرحلة إلى هنا. كان ربَّان السفينة من إحدى القرى المجاورة لقريتنا. ولمَّا رأى الدماء تسيل على وجهي ابتسم، مزهوًّا. ثم همس بلهجتنا وهو يساعد مارية لتصعد إلى السطح الرئيسي على متن السفينة: «أطفال الجبال لا يبكون أبدًا». فزنا بسرير في قمرته الخاصة، وبحساء طيب، وخبز صحيٍّ، وقابلَنا البحارةُ بالاحترام حتى بلغنا هذا الجانب من البحر. لطالما حكَت

t.me/qurssan

الخالة ميرنا عن الأيام الثلاثة التي استغرقَتها العاصفة بينما السفينة في سبيلها إلى عبور المحيط الأطلنطي، عن الساعات المُروِّعة بين أحضان الموت، عن أمي وخوفها من فقداني وسط الأمواج. أما أنا فلم أذُق للشقاء طعمًا آنذاك. بل نمتُ هادئًا على مدى أسابيع طوال، حظيتُ خلالها بأبٍ بحَّار.

t.me/qurssan

تمكَّنت الخالة ميرنا من عبور المحيط. فاستعادَت شبابها، وحصلَت على عمل شريف، وصار لها حبيب من دِين آخر. في وقت قصير، تسنَّى لها التواصل مع أهل هذا البلد واكتسبَت صداقات عابرة، وتعلَّمَت الرقص والكذب. أما أمي، فلا. وصلنا إلى هذه الأرض الجديدة، وعلى الرغم من ذلك عشنا داخل كوخ معتم في قرية أجدادي العنيقة. خلف أبواب البيت ظلَّت تلك القرية الصغيرة حيَّةً على الدوام، بما لها من بيوت حجرية قليلة تفصل بينها مزارع صغيرة وخصومات قديمة، هناك ظلَّت القرية حيَّةً أكثر مما كانت على أرضنا، حيث لم يبقَ سوى أطلال الحرب. وحدها ميرنا جلبَت إلى البيت تلك الحرارة الطليقة الاستوائية، بغرامياتها وكلمات هذه الأرض ذات الإيقاع الموسيقي. أما أنا، فكنتُ أعود إلى القرية بانقضاء كل يوم. منذ طفولتي، كانت أمي تحاول أن تُنسيني كل ما يقع على الجانب الآخر من الباب وكل ما أتعلَّمه في المدرسة أو في الشارع.

t.me/qurssan

لم تُبتدَع كلمة «الحنين» بلغة أجدادي. فالناس هناك لا يبتعدون عن قراهم أبدًا. لأن شيئًا لا يفوق وديانهم وجبالهم جمالًا ونقاءً. ولذا لم تشعر أمي بالحاجة إلى تلك الكلمة يومًا كي تعبِّر عن خسارتها. الحنين.

أما الصور الثلاث الحبيسة في المرآة، والامتناع عن التأقلم على العادات الجديدة، وقصص الطفولة المُختزَلة إلى النصف، فكلها أمور مترعة بالشوق. كلها أمور حوَّلَتني إلى هذا الغريب الذي هو أنا، فلا يسعني حبّ الأرض التي عليها وُلِدتُ ولا أنا جزء من هذا البلد الذي فيه نشأت. أرادَت لي أمي أن أكون بيتَر، وجوزيف، وجدِّي، مُتحرِّرًا من أهوال ساحة المعركة. بَيْد أنها جعلَتني «لا أحد»، وتركَتني أسيرًا في الحرب.

t.me/qurssan

في الأسبوع المقبل أُتمُّ عامي الثامن عشر. «إنه رجل ناضج يترقَّبه مستقبلٌ باهر»، هكذا تنبَّأت لي الخالة ميرنا عَبْر الهاتف حين اتَّصلَت بحبيبها البولندي كي تدعوه. تصرُّ خالتي على إقامة حفل عيد ميلاد من أجلي. لم أتَّصل بأكثر من بعض أصدقاء الكلية، من شأنهم أن يتفهَّموا لو أصيبَت أمي بالنوبة.

اليوم، وبينما رحتُ ألبسها معطف التريكو[1]، ابتسمَت أمي وقالَت: «حين تاه خالك بيتَر في الكهف كان يصغرك بعشرة أعوام. أما أنت فلم تهرب مني. سوف يكون أبوك...».

أصغيتُ إلى كلماتها الحزينة نافد الصبر. وباستخفاف أقسمتُ ألَّا أهرب منها أبدًا كما فعل الخال بيتَر، وألَّا أهجر بيتنا كما فعل أبي. فبكَت أمي في صمت أليم.

«أنت لم تهرب مني. سوف يكون أبوك فخورًا بك للغاية».

---

(١) تريكو: نسيج أو قماش منسوج من خيوط مغزولة.

t.me/qurssan

شعرتُ بالذنب لأني قطعتُ عبارتها المعهودة بتلميحاتي الحمقاء، إذ ألمحتُ إلى أمور لم أعرفها ولم أفهمها ولم أعِشها إلَّا من خلال ما كانت تفضي به خالتي، أو من خلال الكلمات المُبْتَسَرة التي كانت تدلي بها أمي في عزلتها.

لطالما ردَّدَت أمي الشيء نفسه، وقالت إن أبي سوف يكون فخورًا بي للغاية. لستُ على يقين من أيِّ شيء. وإن كنتُ على قناعة بأن أبي لا هجر بيتنا ولا هجر أمي. ذلك شيء في غاية الإجحاف. فلا هجران إن لم يملك المرء خيارًا.

t.me/qurssan

وقع بصر الخالة ميرنا على أبي مرةً وحيدة، وإن لم تكُن على يقين من أنه هو، فأمي هي التي أشارَت ناحيته، في محطة القطار، ناحية الفتى فارع القوام الذي يحمل على ظهره حقيبة ويدخِّن، شاردًا. ثم نظرَت مارية إلى جمع آخر من الجنود على رصيف القطار نفسه. بدا عليها أنها قد تعرَّفَت أحدهم، ميَّزَت عينَيه الزاهيتَيْن، بعيدًا، متواريتَيْن خلف ضحكة بليدة. هرولَت إلى باب عربة القطار، وابتسمَت صائحةً: «جوزيف!» ولكن أحدًا لم ينظر إليها.

كتمَت الخالة ميرنا فم مارية بيدها، فليس من الممكن أن تجازفا بافتضاح أمرهما، وإلَّا ما تحمَّلَتا العيش في ذلك الجحيم مرة أخرى قطُّ. انزوَتا على نفسَيْهما في جوف عربة القطار. ولم يأتِ جنديٌّ واحد مُدَّعيًا أبوَّتي لنفسه.

t.me/qurssan

«أعرف أني،
من بعيد،
لا أعدو أن أكون ظلًّا،
يرفُّ حول روحك...
ولكن،
عسى أن أكون ظلًّا خفيفًا
يتماوج من حولك،
لا شبحًا ميتًا يبثُّ الذعر في نفسك».

«أذكر ظلَّه حين وصل إلى الباب ممسكًا بالثياب في يده. أذكر ظلَّه عندما جرجروه ومضوا به إلى الخارج. أذكره».

t.me/qurssan

يعلم أصدقائي بمشكلة أمي، ولا مانع لديهم إن لم تميِّز إلَّا ماداليا في الحفل الذي لم يحضره سوى قلَّة قليلة من المدعوين. إن ماداليا هي السَّكِينة التي لا تجدها أمي بجوارنا. ربما كان ذلك هو السبب الذي جعل وجهها يبقى في ذاكرة أمي، في حين يشقُّ عليها تذكُّر وجهي أكثر فأكثر.

كُنَّا صديقَيْن في المدرسة، وكثيرًا ما أمضيتُ أمسيات كاملة وأنا ألقِّن ماداليا الدوافع التي أفضَت بالبشر إلى خوض الحروب الكبرى، أو مُسبِّبات الكساد الكبير. ومن أجلي، التحقَت ماداليا بالكلِّية معي لدراسة التاريخ. لا عجب أن تذكر أمي تلك الفتاة التي شُغِفتُ بها وأنا أدافع عنها حين سقطَت ضحية زميلات الصف الدراسي اللائي ضقن بشعبيَّتها الجارفة وسط الفتيان.

«ماداليا نقيَّة وعذبة، سوف تنجب لنا أحفادًا!» هكذا قالَت الخالة ميرنا مُحرِّضةً وهي تصبُّ المزيد من الكوكاكولا في كأس الرَمِّ من أجل حبيبها البولندي الذي ضحك عن طيب خاطر، وغمز لي

t.me/qurssan

بعينه في تضامن ذكوري. كانت تلك أول لفتة تقارب بيني وبين مهندس المساحة الذي انتقدني لأني كثير القراءة، قليل التسلية. أما حبيب خالتي السابق، الإيطالي الذي كان يعمل نادلًا لدى مطعم الدجاج القائم في شارعنا، فكان يجاذبني أطراف الحديث، وإن لم يحدِّثني إلَّا ساخرًا من خيبتي مع النساء دومًا. أما الآن فلقد تبدَّلت الحال.

الخالة ميرنا ترفع ماداليا إلى مصاف القديسين، حتى إنها لو كانت أكثر تديُّنًا بقليل لعلَّقت أيقونة تصوِّر ذلك الوجه المُحبَّب، «وجه الفتاة ذات العينَيْن الرحيمتَيْن»، مُحاطًا بوشاح أزرق وإطار من الذهب. أما أصدقائي في الكلية، فلا يرون فيها سوى فتاة تسرق انتباهي عشيَّة الاختبارات الأشدِّ صعوبةً.

ماداليا هي راحتي، حتى وإن لم يجرِ بيننا شيء أكثر جدِّية قطُّ. هي الشخص الوحيد الذي يتردَّد على بيتنا، بخلاف أحبَّاء الخالة ميرنا (الذين تراهم أهلًا للتعرُّف بي أنا وأمي). كانت أمي تحبُّ رفقتها كثيرًا، لأنها الوحيدة التي ترجع صداقتي بها إلى ما قبل مرض أمي. وما كانت ماداليا تُعرض عن البقاء بجوارها، بل إنها علَّمَت مارية التريكو، وكانتا تمضيان أمسيات كاملة معًا، وهما تتجاذبان أطراف الحديث بشأن تُرَّهَات. من أجل ماداليا، شرعتُ أتلو الشِّعر على أمي بعد أن اختلط عليها اسمي لأول مرة. كان النسيان قد أودى بجدِّ ماداليا هو الآخر، ولذا فهي تعرف ما يخبِّئه لنا المستقبل. ماداليا هي روحي، وهي سلامتي.

t.me/qurssan

حين غنّى الحضور أغنية عيد الميلاد، ملأتني البهجة بالشجاعة، فطبعتُ قبلةً على ثغر مادالينا لأول مرة. وإذا البولندي يحتفل بالواقعة كما لو كانت هدفًا هزَّ شباك المرمى، رافعًا كأسه الخاوية. أما هي فابتسمَت بين خجل وسعادة، لست أدري على وجه اليقين. تحمَّس بعض الزملاء لتكرار دعوة العشاء، بينما أخذَت الخالة ميرنا تشجِّع جوقة المبتهجين. ولكن أمي أوَت إلى حجرَتها متواريةً عن العيون وراحَت تبكي حتى ذهبَت إليها مادالينا وحدها، واعتذرَت إليها.

عند ذاك ضحكَت مارية ومسحَت دموعها، وأقسمَت بأنها سعيدة. رأت قبلتنا فأفضَت إليها باعتراف لم تفهمه مادالينا، قالَت لها شيئًا عن جوزيف الذي انتُزِع من بين ذراعَيْها حتى قبل أن تتلامس الشفاه.

لم يكُن في ذاكرة الخالة ميرنا من العيون الزرق إلا زوجَيْن، بَيْد أنها لم ترهما في محطة القطار، وإنما في وجه العجوز الذي آوى الخالة ميرنا المُعذَّبة ومارية التي داهمَتها آلام الولادة، ذلك العجوز الذي كان حاجباه الداكنان يبرزان عينَيه هو الآخر.

بدأتا المسير في الطريق الخالية والليل على وشك الهبوط، حتى لا يفتضح أمرهما. لاذتا بالهرب من قريتهما، بعد تواريهما عن الأنظار طوال شهور. زحفَتا عَبْر الحقول وصولًا إلى النهر، وسارتا بجوار السياجات والشجيرات لئلَّا تجذبا انتباه أحد المارَّة. ومن آن إلى آخر، كانتا تسارعان بالاختباء كلَّما وشى صوتٌ بوجود أحدهم. ولكن

t.me/qurssan

الآلام تفجَّرَت من دون سابق إنذار. بدأت مارية تئنُّ بصوتٍ عالٍ، وتستغيث بالله، وما لبثَت أن فقدَت وعيها. أمسكَت الخالة ميرنا بذراعها، وساندَتها خائرة القوى، ثم تملَّكها الجزع حين رأت ثوب مارية مُبتلًّا بين الفخذَيْن، ورأت وجهها يتلوَّى ألمًا، ويدَيْها تنقبضان تأثُّرًا بأوجاع لم تحسَّها في أيِّ وقت مضى. رحتُ أشنق ذاتي بذاتي، وأنشبتُ أصابعي في رحم أمي، رافضًا المجيء. خرج العجوز من الحظيرة على وقع صراخها، فوجد كلتا المرأتَيْن طريحةً على حافة الطريق، على مقربة من الجدار الحجري الذي يحدُّ أرضه.

ويشاء ربُّ أمي أن أُولَد على فراش أرمل مسيحي وحيد، وكأنه ضرب من السخرية. على يدَي الشيخوخة الحكيمة حُمِلتُ إلى حجرة دافئة مُزوَّدة بالملاءات النظيفة. والفضل في ذلك يرجع إلى طيبة واحد من أعداء أجدادي القدامى.

شعرَت الخالة ميرنا بالخوف من البقاء هناك، فالمكان على رحابته غارق في العتمة التي أسدلَتها عليه قطعُ الأثاث العتيقة وصورُ القديسين المهيبة. كانت تعرف عن ظهر قلب قصصًا مُروِّعة عن غلظة الكافرين. شعرَت بالذعر من العذاب المنحوت على الصليب الخشبي، فأمسكَت بقوة يد مارية التي راحت تنشج ألمًا. ولكن عينَي السيد ميخايلو الزرقاوَيْن هدَّأتا من شدة الانقباضات.

وُلِدتُ في سلام، ولم تشكُ أمي لحظة واحدة بينما كان يساعدني على الخروج إلى الدنيا ارتجالًا. أخذني العجوز الرحيم بين ذراعَيْه وهو يردِّد كلمات مُقدَّسة لن تنساها أمي ما حييَت. قطعَت الخالة

t.me/qurssan

ميرنا حبلي السري، فطلب منها العجوز أن ترسم على شفتيّها ابتسامة، لجلب الحظ. سأل أمي عن اسم المولود، فلم تدرِ بمَ تجيب. وفيما هو يفكّر في الابن الذي لم ينجبه قطُّ، تنبّأ لي بالسعادة لو أطلقَت عليَّ أمي اسمًا مُقدَّسًا بعينه. وفي إعياء، سخَّن المياه من أجل الاغتسال وأعدَّ حساء الشمندر والخبز كي تستردَّ مارية الدماء التي نزفَتها.

كان العجوز الصالح هو الذي شملني برعايته حتى أنجو بحياتي من البرد المهول الذي عمَّ الأجواء في ديسمبر من ذلك العام، وأنجو بحياتي من فضول الجيران. بَيْد أنهم سرعان ما انتبهوا إلى بكاء الطفل الآتي من بيت ميخايلو المُتوحِّد. في البدء، ذهبَت امرأة تطلب الحليب وتسأله عن المولود. فأنهى الحديث قائلًا إنه ابن واحدة من بنات أشقائه، وصلَت إلى البيت قبل أسبوع، ثم أقفل الباب أمام العينَيْن المُتطفِّلتَيْن. بعد ذلك أقبل آخرون يطلبون البيض أو البطاطس أو الصلوات أو الشاي. كما أرسل البعض أطفالهم المحمومين إلى باب العجوز يطلبون منه البركة، ويتلصَّصون على الزائرين. فكان العجوز يُبعِد الفضوليين بكلمات جافة مبهمة، من دون أن يهمل مهمَّاته.

بعد مضي شهرَيْن حضر ابن عمِّه غير الشقيق على خبر الأقرباء الذين وصلوا إلى القرية في الآونة الأخيرة. قدَّمَنا له ميخايلو، أنا والخالة ميرنا ومارية، على أننا أبناء واحدة من أخوات زوجته الراحلة. فولَّى الفتى هاربًا وهو يكيل السباب للعجوز.

t.me/qurssan

قبل أربعين عامًا مضَت، في قرية أخرى، هجرَت امرأة دينها لتهرب مع السيد ميخايلو. فتوعَّدت الأسرة ذلك الخائن بحرمانه كنسيًّا. بَيْد أن العجوز كان يملك بالفعل خيرة أراضي المنطقة، وكانَت صلواته ومنتجاته من الحليب والبيض هي الأدوية الأكثر رواجًا في تلك القرية التي خلَت من الأطباء. مكث ميخايلو هناك، وتزوَّج بالغريبة، غير أن الشبهات التي ثارَت حول المرأة لم تنقطع يومًا، حتى بعد موتها. البعض يقول إنهم رأوا شبحها يحوم حول بيت ميخايلو الواقع تحت سحرها. لو لم تكُن بركاته ومنتجاته من الأجبان ضرورية إلى هذا الحدِّ، لألقَت الأسطورة بظلال الريبة على كل ما يزرعه الرجل بمضي الأعوام. كان ابن العم المذكور واحدًا من أولئك الذين كرهوا المرأة المُتحوِّلة. ثم كرهنا بالقدر نفسه.

لم يقتنع غلاظ القلوب بقصة المرأتَيْن والمولود طويلًا. فمن المُفترَض أننا أقرباء جاؤوا من بعيد، وسط شدائد الحرب، للعيش مع العجوز الناسك. ولكن التمثيلية افتضحَت بسبب المسلك المُتوجِّس والحجاب الذي سترَت به المرأتان رأسَيْهما. بالكاد كنتُ أحبو عندما تكدَّر صفو السلام المفعم بالاحترام بين العجوز وضيوفه غير المُتوقَّعين، إذ جاءت الدوريات بحثًا عن الهاربين. كان ابن عمِّ العجوز الذي أحسن إلينا قد أبلغ عنا من دون الإفصاح عن هويته، ساعيًا إلى الكشف عن الحقيقة، والفوز بممتلكات العجوز العجائبية. عشنا ثلاثة أسابيع في حظيرة السيد ميخايلو حتى استطاع أن يدبِّر عربةً مُوصدَة كي تقلَّنا إلى أقرب محطة قطار في الخفاء. لم تكد أمي وخالتي ميرنا تنالان قسطًا من الراحة طوال

t.me/qurssan

أيام الترقُّب، فأيُّ صوت غريب كان يوقظهما في الليل الهادئ. أما أنا فكنتُ أنام في مهدي المصنوع من القشّ، هادئًا بريئًا وسط الحيوانات.

أخبر السيد ميخايلو جيرانه في القرية أننا قد ولّينا هاربين في منتصف الليل، وأخذنا طعامه ونقوده. وجَّه إلينا أصابع الاتهام حتى يقنعهم بهروبنا. فما كان أحد ليتوقَّع غير ذلك من أقرباء المشعوذة الميتة. ضحكتُ كثيرًا بينما راحت الخالة ميرنا تتخيَّل المشهد وتقلِّد العجوز وهو يخبرهم برحيلنا المفاجئ في اتجاه الغرب، مُتصنِّعًا البلاهة، حالفًا بأنه وقع ضحية خداع المرأتَيْن طوال الفترة الماضية.. فعل كل ما فعل كي يحمينا في رحلتنا.

قبل الرحيل، سدَّدَت أمي الدَّين الذي كان في أعناقنا للعجوز. فسمَّتني إيفانويل، على اسم ابن السيد ميخايلو الذي لم يُولَد قطّ. وكان الربُّ معنا.

t.me/qurssan

اليوم أفاقَت أمي في مزاج رائق ليس له ما يفسِّره. قامَت من الفراش وحدها وأبَت إلَّا أن تساعد الخالة ميرنا وهي تعدُّ الفطور. أعدَّت كعكًا بجبن الضأن، كما في زمن ما قبل الحرب، حتى إنها نسيَت شرب قدح الماء البارد على معدة خاوية. روَت النباتات وهي تسبِّح اسمَ ربِّها على جمال الحياة، في أنشودة بلا كلمات. جعلَت تقبِّلني كلما مرَّت بي، ولم تسأل عن ماداليا. قدَّمتُ لها الحليب المُحلَّى بالعسل، فأعربَت أمي عن امتنانها للخالة ميرنا لأنها عاونَتها على تنشئة ابن مطيع وقوي مثلي. تكلَّمَت طوال الوقت بلغة هذا البلد، بلكنتها الأجنبية الثقيلة، وإن كانت واعيةً تمام الوعي، تعرف من نحن وأين كُنَّا.

وإذا هي تهبُّ مفزوعةً، وتُغادر مائدة الفطور مُودِّعةً، ومُتَّجهةً إلى باب الصالة: فعليها أن تعجِّل بالذهاب وإلَّا تأخَّرَت على موعد لقاء جوزيف في قطار اللاجئين.

t.me/qurssan

«حين وُلِد إيمانويل، لم أكُن أملك ما أستره به من الشياب».

ربَّتَت مادالينا على وجه مارية. وبابتسامة، كرَّرَت على أمي أن كل شيء صار على ما يرام، وأني كبرتُ وسيمًا معافًى، حتى وإن لم يكُن القماط في انتظاري حين وُلِدت.

وإلى جوار أمي، راحَت تطرِّز وشاحًا بألوان العلم الوطني لـ«بلدي الجديد». هكذا كانت تسمِّي أرض الماضي الموغلة في البعد. كُنَّا نعرف أن الشباب هناك يطالبون بالاستقلال والانتخابات الحرَّة. رأيناهم على شاشة التلفزيون، في حانة إستوريا، وهم يردِّدون الهتافات في الشوارع نفسها التي قطعَتها أمي وخالتي ميرنا هاربتَيْن من الجنود الأعداء. من الجميل أن يكون لي موطنَان، طبقًا لما رأت مادالينا التي أصرَّت على أن أحدِّث خالتي وأمي بلغة تلك الأرض الزائلة. كما أصرَّت على أن أهمس إليها بألف عهد من عهود الحبِّ التي قد تفهمها يومًا.

«حين وُلِد إيمانويل، لم أكُن أملك ما أستره به من الشياب».

t.me/qurssan

رأيتُ في عينَي ماداليا رغبتها في المسير وسط هاتيك الأنقاض. كانت تعرف القليلَ الذي عرفتُه أنا نفسي من خلال حكايات أسرتي الهاربة من الحرب. ربما كان ذلك هو السبب الذي دفعها إلى الشعور بتلك الغيرة الغريبة، فلم تكُن لها ثورة تحارب في صفوفها، ولا بلد جديد تعيد بناءه. كانت ترنو في زهو إلى أمي وهي تكافح ضد الطغاة، وتتغلَّب على هشاشة المرأة، وتأبى فقدان ثقافتها وحريتها. رأت في مارية الإنسانة التي أثبتَت أن بمقدورها الانتصار على القدر. راحت أصابع ماداليا الرشيقة تطرِّز الوشاح، مُتَّقدةً على وقع الاحتجاجات التي اندلعَت على الجانب الآخر من المحيط، آملةً أن تتَّخذ من ذلك الوشاح رايةً ذات يوم.

أما مارية فبمشقَّة راحَت تطرِّز جوربًا صغيرًا ملتويًا من أجل قدمَي وليدها الباردتَيْن.

«متى وُلِد إيمانويل، سيكون لديه ما يستره من الشتاء».

t.me/qurssan

كان ذلك هو النهار الأبرد على مدار العام، وفق ما نُشِر لاحقًا في جريدة المساء، وإن ما عاد ينفعني الخبر بشيء. في الصباح الباكر، لففتُ الوشاح الجديد حول عنقي وذهبتُ إلى وسط المدينة، حتى أنسى. وعلى الرصيف، انضممتُ إلى جمع المنعزلين، مُتظاهرًا بعدم الاكتراث لنظرات الآخرين. حقًّا، كان ذلك هو البرد الأشدُّ هولًا.

ولكن في يوم أشدُّ منه برودة، خرج خالي بيتَر من البيت وقد اتَّقد وجهه من فرط الغضب. بخمس قطع نقدية في جيبه، وثلاث قطع من الثياب مطوية داخل ملاءة، واجه بيتَر عاصفة ثلجية وآلامًا أشدَّ بكثير حتى يهرب من غضب أبيه ويربح العالَم، حتى لا يُضطرَّ إلى رعي الخراف مرة أخرى، في أعالي الجبل، وحيدًا، وهو يتضوَّر جوعًا.

عثر عليه جدِّي بعد مضي سبعة أيام، مختبئًا في أحد الكهوف، عثر عليه وقد ازرقَّت شفتاه وتيبَّستا، وشُلَّت يداه، في مهبِّ الريح.

عرَّجتُ على السوق العمومية وأنا لا آبه للجموع التي انزوَت

t.me/qurssan

على نفسها واتَّخذَت لنفسها ملاذًا. لم يكُن في حوزتي إلَّا ثمن التذاكر الذي احتفظتُ به في جيب معطف جلدي عتيق ورثتُه عن حبيب خالتي الأوروغوياني. والآن ينقصني الكهف المعتم حتى أختبئ فيه سبعة أيام وسبع ليالٍ، أختبئ من ذكريات كشفَتها الحمَّى المُتقطِّعة التي استحوذَت على أمي.

t.me/qurssan

كان جوزيف من الشعب المختار. أما جدَّتي وخالتي ميرنا وأمي، وأمثال هاتيك النساء اللاتي يلدن عِرقًا من أولئك الذين يصرُّون على اختلافهم، فهن السبب الذي حال دونه ودون العيش في الفردوس الموعود. سرق أسلافي مال شعبه، وازدروا ربَّ المسيحية بتقاليدهم الآثمة، واغتصبوا خيرة الأراضي منذ بدء الزمان، ولكن من الجليّ أن الأحقية لأسلاف أبي. هكذا علَّموه أن يكرهنا، وفق ما أتخيَّل.

لقد زرع سادةُ الحرب الجهلَ في نفس جوزيف. وآثروا غواية جنودهم بالأمل في مستقبل باهر وتغذية الشعور بذنوب الماضي والتشديد على تقاعس الحاضر، بغرض السيطرة على العقول الضعيفة. فالأسهل أن يتَّخذوا من أمي كبش فداء. وكان ذلك هو النهج الذي ساروا عليه في أرضي، في كل مركز من مراكز التدريب، وكل مدرسة، وكل كنيسة. فالقتلة والمغتصبون في حاجة إلى نزع السمة البشرية عن الآخر قبل ارتكاب جرائمهم.

t.me/qurssan

ولكن جوزيف لم يتركنا لهذا السبب. كانت خالتي بما لها من طيبة قد نسجَت ذكرى أب هارب من العسكرية، تخلَّى عن الجيش لئلَّا يستمرَّ في الحرب على شعب المرأة التي يعشقها. ولمَّا عاد باحثًا عن أمي، كانت الحرب قد أرغمَت الشقيقتَيْن على اتِّخاذ طريق الهرب من الجنود الأشرار. وهكذا فرَّقَت الحرب بين عاشقَيْن في ريعان الشباب.

كرَّرتُ القصة على نفسي، وإذا هي تغدو أسطورتي الخاصة، التي لا يرقى إليها شكٌّ، والتي تنعشني بما تنطوي عليه من آمال محجوبة. ولكن حمَّى أمي قوَّضَت تلك الأسطورة منذ أيام قلائل: إذ أقرَّت بأن جنديًّا آخر قد انتزع أبي من بين ذراعَيْها، ومن ذلك الحين، لم تعاود اللقاء به قطُّ. أخفى عني سباتُ أمي كل التفاصيل، ذلك السبات الذي غرقَت فيه تحت وطأة العقاقير. إنها القصة نفسها التي أفضَت بها في حسرةٍ تلك الليلة، حين طبعتُ القبلة الأولى على ثغر ماداليا، قصة الشفاه التي لم تتلامس قطُّ.

لقد أخذ سادةُ الحرب أبي. أفلحوا في انتزاعه من أمي، التي ما كانت تملك القوة الكافية لفعل شيء. وبمُضِيِّ الأعوام، أدركتُ حقيقةً لا سبيل إلى إنكارها: أدركتُ أنهم لم يتمكَّنوا من إقناع جوزيف بأن أمي هي أصل الشرور. ما عدتُ مؤمنًا بعودته. فأبي لا يعرف عني أكثر مما أعرف عنه.

t.me/qurssan

يومَ صارحَتني بالحقيقة، حكَت لي الخالة ميرنا عن المستشفى.

كان حبيبها البولندي قد تخلَّى عنها مُغامِرًا بالذهاب إلى مزرعة على مقربة من حدود بوليفيا. أقسم لها أن يعود حين يصبح ثريًّا، من مُلَّاك الأراضي. أما هي فأجهشَت ببكاء جاف، علمًا منها أن امرأة أخرى هي السبب في ذلك الانتقال المفاجئ. انفجرَت في ضحك خالٍ من الدعابة وقالَت: «متى أراد الرجال أن يحطمونا، فهم لا يفلحون أبدًا في الكذب لوقت طويل».

مستغرقةً في غضبها، ناسيةً أمري، راحَت تستحضر الخيانة التي وقعَت في المستشفى حيث أمضَت شطرًا طويلًا من الحرب.

كانت الغرف بسيطة، ولكن نظيفة ومُرتَّبة. شغل الشيوخ الذين لا أهل لهم معظم أسِرَّة المستشفى، أما البقية فشغلَتها قلة قليلة من الشباب الذين لحقَتهم إصابات ميدانية. شهدَت تلك الأيام نقصًا شديدًا في كل شيء، وما عادَت المُمرِّضات يجدن المواد اللازمة

t.me/qurssan

ولكن جوزيف لم يتركنا لهذا السبب. كانت خالتي بما لها من طيبة قد نسجَت ذكرى أب هارب من العسكرية، تخلَّى عن الجيش لئلَّا يستمرَّ في الحرب على شعب المرأة التي يعشقها. ولمَّا عاد باحثًا عن أمي، كانت الحرب قد أرغمَت الشقيقتَيْن على اتِّخاذ طريق الهرب من الجنود الأشرار. وهكذا فرَّقَت الحرب بين عاشقَيْن في ريعان الشباب.

كرَّرتُ القصة على نفسي، وإذا هي تغدو أسطورتي الخاصة، التي لا يرقى إليها شكٌّ، والتي تنعشني بما تنطوي عليه من آمال محجوبة. ولكن حمَّى أمي قوَّضَت تلك الأسطورة منذ أيام قلائل: إذ أقرَّت بأن جنديًّا آخر قد انتزع أبي من بين ذراعَيْها، ومن ذلك الحين، لم تعاود اللقاء به قطُّ. أخفى عني سباتُ أمي كل التفاصيل، ذلك السبات الذي غرقَت فيه تحت وطأة العقاقير. إنها القصة نفسها التي أفضَت بها في حسرةٍ تلك الليلة، حين طبعتُ القبلة الأولى على ثغر ماداليا، قصة الشفاه التي لم تتلامس قطُّ.

لقد أخذ سادةُ الحرب أبي. أفلحوا في انتزاعه من أمي، التي ما كانت تملك القوة الكافية لفعل شيء. وبمُضِي الأعوام، أدركتُ حقيقةً لا سبيل إلى إنكارها: أدركتُ أنهم لم يتمكَّنوا من إقناع جوزيف بأن أمي هي أصل الشرور. ما عدتُ مؤمنًا بعودته. فأبي لا يعرف عني أكثر مما أعرف عنه.

t.me/qurssan

يومَ صارحَتني بالحقيقة، حكَت لي الخالة ميرنا عن المستشفى.

كان حبيبها البولندي قد تخلَّى عنها مُغامِرًا بالذهاب إلى مزرعة على مقربة من حدود بوليفيا. أقسم لها أن يعود حين يصبح ثريًّا، من مُلَّاك الأراضي. أما هي فأجهشَت ببكاء جاف، علمًا منها أن امرأة أخرى هي السبب في ذلك الانتقال المفاجئ. انفجرَت في ضحك خالٍ من الدعابة وقالَت: «متى أراد الرجال أن يحطمونا، فهم لا يفلحون أبدًا في الكذب لوقت طويل».

مستغرقةً في غضبها، ناسيةً أمري، راحَت تستحضر الخيانة التي وقعَت في المستشفى حيث أمضَت شطرًا طويلًا من الحرب.

كانت الغرف بسيطة، ولكن نظيفة ومُرتَّبة. شغل الشيوخ الذين لا أهل لهم معظم أسِرَّة المستشفى، أما البقية فشغلَتها قلة قليلة من الشباب الذين لحقَتهم إصابات ميدانية. شهدَت تلك الأيام نقصًا شديدًا في كل شيء، وما عادَت المُمرِّضات يجدن المواد اللازمة

t.me/qurssan

لمباشرة عملهن، حتى صار قدحٌ من شراب الراكيا[1] هو المُخدِّر المُعتمَد في العمليات الجراحية الأشدّ خطورة. اجتاح الأعداء بناء المستشفى مطلقين صيحاتهم، ثم جمعوا كل الأطباء والمُمرِّضين في قاعة الطعام. تعهَّدوا لهم بمراعاة معاهدات الحرب، وهدَّؤوا النفوس، مبتسمين. وبلطفٍ مَرَضي، اقتادوا نساء المجموعة إلى جناح الزوار، وهم يقسمون إن ما يجري من مصلحة الفتيات، اللاتي سوف يلتقين بالكثيرات ممن جيء بهن على متن الحافلات والشاحنات من القرى القريبة. أُوصِدَت الأبواب، وأُرغِم الرجال على خلع ثيابهم، ثم أُمِروا بالتحوُّل عن دينهم والانضمام إلى الجيش برهانًا على الوفاء. فكان الرفض سببًا في انطلاق الرصاصات الأولى من فوَّهات البنادق المُلصَقة بالأجساد. أصدر الجنود أوامرهم إلى المُمرِّضات بالصعود إلى الطابق العلوي وجرجروا الحالات الأقل خطورة إلى خارج الغرف. حملوا أولئك القادرين على السير في شاحنة إلى جسر حتى ينحروا أعناقهم ويلقوا بأجسادهم في النهر. ألقوا بالمرضى الأشدّ وهنًا من النوافذ. أطفؤوا المُعدَّات الطبية رميًا بالرصاص. قتلوا الشيوخ الذين يمثِّلون عقبة في سبيل أيِّ جيش غازٍ. قتلوا بعضهم على الأسِرَّة وبعضهم محتشدين في الباحة، من أجل تسلية البنادق النصف آلية.

أما الطبيبات والمُمرِّضات فلم يلقين المصير نفسه.

---

(١) راكيا: شراب روحي يشبه العَرَق شائع في عدد من البلدان، ولا سيما بلدان شرق أوروبا مثل صربيا والبوسنة والهرسك.

t.me/qurssan

امتقع وجهي تأثُّرًا بأولئك الذين لم أعرفهم يومًا، فواسَتني الخالة ميرنا لمَّا انتبهَت إلى الدماء التي سالَت في صالتنا على وقع كلماتها الغاضبة. «ربما اختلط كل شيء في رأسي». أشعلَت سيجارتها، سيجارة الساعات المريرة. أما أنا فبلغتُ يقيني. كلهم ماتوا هناك، وكذلك مات جزء من الخالة ميرنا.

t.me/qurssan

في واحدة من الاحتفاليات الفولكلورية، ابتُكِر نشاط لتلاميذ مدرستي الابتدائية حيث كان على كل طفل أن يُجري بحثًا عن أسطورة برازيلية، أيًا كانت، أو يُحضِر إلى الفصل حِرَفيًا كي يشرح للتلاميذ كيف يزاول حرفته وما نفعها. فاقترحَت عليَّ المُعلِّمة أن أُحضِر شيئًا مُميَّزًا من الأرض التي وُلِدتُ عليها حتى يراه زملائي، وقد حدَّثها ظنُّها الواهم أنها تساعدني بذلك على الاندماج في المجموعة. طلبتُ من الخالة ميرنا اقتراحًا، فنظرَت إلى حبيبها الإيطالي ساخرةً وقالَت إن أكثر ما يميِّز قريتنا هو البؤس.

لم أرغب في الحديث عن الأمر إلى أمي خشية أن تحاول مساعدتي، وإلَّا خجلتُ من رؤيتها في الفصل وهي تُطلِع التلاميذ على صور الأسرة الثلاث، تلك التي تمزَّقَت خلال الرحلة. كان الجميع يراني غريبًا، ولن أتحمَّل تقديم المزيد من الأسباب لتأكيد ذلك الانطباع.

قدَّمتُ لهم قليلًا من الغرائبية التي يتوقَّعونها من لاجئ مثلي، إذ لم أجد خيرًا من ذلك. فرويتُ على زملائي قصة الخال بيتَر كما

t.me/qurssan

لو كانت أسطورة وأدمجتُ فيها شيئًا من الرموز الإلهية المحلية التي آمن بها أسلافي. ضحك بعض التلاميذ من الإله الآب[1] الذي راح يمشي في أرجاء الغابة المعتمة سبعة أيام وسبع ليالٍ، ومن الخراف الضالة، ومن العاصفة الثلجية التي لا تنتهي. أما المُعلِّمة فاغرورقَت عيناها بالدموع حين ذكرتُ الجسد المُجمَّد، جسد ذلك الطفل الذي كان عندي بمثابة إله مات في أعماق الكهف.

---

(١) الآب: الأقنوم الأول عند المسيحيين.

t.me/qurssan

كان بيدرو إرنستو هو أول رجل أسود البشرة تراه أمي عن كثب.

أمضَت الخالة ميرنا أسبوعَيْن وهي تهيِّئ مارية معنويًّا لذلك الأمر الجديد. وتجنُّبًا للحرج، كانت تحدِّث أمي كل يوم عن مزايا هذه الأرض: حيث الشعوب المختلطة بلا حروب، والفرص المتاحة للجميع. ذكَّرتها بابنة عمٍّ مصابة بالمهق، بارعة في الاعتناء بشجيرات الورد، علَّمَت مارية الاهتمام بالأزهار وتوقُّع الأمطار. كما طلبَت الخالة ميرنا من ماداليا أن تعينها على ترقيق فؤاد أمي، وهي تتوجَّس الأسوأ.

حين جاء بيدرو إرنستو لزيارتنا مساء الأحد التالي، كُنَّا قد أعددنا الكعك بجبن الضأن ومربَّى التوت، والحليب المُحلَّى بالعسل، وخبز أرضنا الطازج الذي خرج من الفرن لتوِّه. تمالكَت أمي نفسها طوال اليوم، وراحت تساعد الخالة ميرنا في إعداد الطعام، وتساعد ماداليا في تجهيز المائدة.

t.me/qurssan

كان إرنستو مُمرِّضًا في المستشفى حيث تعمل الخالة ميرنا. ثم أمضى عامَيْن وهو يعمل بعيدًا بغرض الادخار، إذ تولَّى الرعاية الطبِّيَّة على متن إحدى السفن.

أحضر لمارية أزهارًا، حسب الاتفاق. وحين سمعنا قرعًا على الباب، ذهبَت الخالة ميرنا لاستقباله بينما راحَت مادالينا تلقي على أمي كلمة مُعزِّية أخيرة. طلبَت منه خالتي أن يتفضَّل إلى الصالة معتذرةً إليه سلفًا، إذ رأت أمي بعين الخيال وهي تنطلق في الصراخ والسباب الخرِف، أو تجهش ببكاء الشيخوخة مُتأثِّرةً بأحكامها المسبقة.

ولكن مارية لم ترغب إلَّا في لمس بشرته. رأت پيدرو إرنستو، فضحكَت كالطفلة ونظرَت إلى مادالينا غير مُصدِّقة، ثم أدارَت وجهها خجلًا. بعد ذلك مضَت إليه بخطى حذرة وابتسامة مفعمة بالترقُّب. اتَّكأت على ذراعه مرةً، بأصابع منقبضة من فرط الفضول، ثم فركَت بشرته الداكنة براحة يدها. فما كان منه إلَّا أن ابتسم. نظرَت أمي إلى الخالة ميرنا وانفجرَت مقهقهةً، سعيدةً.

«إنه من الفحم، ولكن بشرته لا تلوِّثنا. جميل كالتوت الناضج!».

كان پيدرو إرنستو أول رجل تعانقه أمي منذ انتُزِع أبي من بين ذراعَيْها.

t.me/qurssan

كانت الخالة ميرنا مساعدة تمريض في المدينة القريبة من القرية. الآن تذكَّرت. المستشفى.

لم تعمل أمي بالتمريض قطُّ، ولكني أعلم أنها كانت في المستشفى هي الأخرى. كنتُ قد نسيت. نزلَت أمي والخالة ميرنا في المستشفى زمنًا إبَّان الحرب.

لم تكُن مارية مريضة. فالمرضى لا يسيرون عدة كيلومترات، ولا يتخفَّون من الدوريات العسكرية، ولا يقتاتون على النزر اليسير الذي يجدونه على حافة الطريق.

كانت حبلى بي أنا. لهذا نزلَت في المستشفى، والحرب في أوجها، مع أن قريتنا كانت قريبة جدًّا. ربما.

t.me/qurssan

لم يكُن بيدرو إرنستو حادَّ المزاج كالإيطالي، ولا مبتهجًا كالبولندي، ولا ثريًّا كالأوروغوياني. ولكنه أحبَّ الخالة ميرنا بصدق، وكان هو الذي عاد بأمي إلى البيت ذات أحدٍ خيَّم علينا اليأس فيه.

يومذاك أفقتُ مُبكِّرًا لأشاهد ماداليا على خشبة المسرح في ثياب رومانية. كان من المزمع أن تعلِّم أطفال حيِّنا نظرية تناسخ الأرواح. وعلى أعتاب بيتنا، ألفيتُ الخالة ميرنا تصرخ يائسةً بلغة القرية، وتتضرَّع من أجل عودة مارية. فما كان مني إلَّا أن نسيتُ روما للحظات وهمتُ في الشوارع المجاورة. حاولتُ أن أتخيَّل إلى أين حملَت أمي أهواء المرض المباغتة.

اتَّصلَت الخالة ميرنا بأحبائها القدامى، ذاهلةً، باحثةً لنفسها عن أيِّ ملاذ. وحده بيدرو إرنستو لم يرفع سماعة الهاتف. فبينما راحَت الخالة ميرنا تلتمس العزاء في أصوات رجال آخرين، وبينما سرتُ أنا مُعذَّبًا من مُربَّع سكني إلى آخر، أقبل بيدرو إرنستو إلى البيت

t.me/qurssan

عائدًا بأمي، وقد ألبسها بالطو المُمرِّض الخاص به. كان قد عثر على أمي وهي لا تزال في ثياب النوم، جالسةً في إحدى الساحات، تنتحب وتطرِّز قطعة من التريكو. بَيْد أنها لا تعرِّفَته، ولا قبلَت أن يجلس برفقتها على المقعد نفسه. مدَّ لها ذراعه فتلمَّسَت بشرته الداكنة مفتونةً ثم عادَت إلى التطريز. كانت أمي تترقَّب وصول جوزيف على متن القطار العسكري، لن تبارح مكانها وإلَّا فقدَته مرة أخرى. وعلى الرغم من ذلك، فما كاد پيدرو إرنستو يخبرها بأن إيمانويل الصغير في حاجة إليها حتى أقبلَت سعيدة، وجاءت سيرًا بجوار المُمرِّض.

بعد مضي ثلاثة أشهر، أعلن پيدرو إرنستو والخالة ميرنا خطوبتهما.

t.me/qurssan

بالأمس أرَتني مادالينا أن أمي لم تعُد قادرة على التطريز كما في سابق عهدها. صارَت مارية تُخطئ الغُرَز بسهولة، وتصنعها طويلة، متفاوتة. وعلى الرغم من ذلك، تقول لها مادالينا إن قطعة التريكو «في غاية الجمال»، وإن «إيمانويل سوف ينعم بالدفء والراحة». أكاذيب عذبة، من قبيل الشفقة. ثم تعيد مادالينا تطريز القطعة في بيتها ليلًا، كي تسرَّ بها أمي في صباح اليوم التالي.

تلوتُ عليها المزيد من القصائد. إذ تصرُّ مادالينا على أهمية الأشعار لعلاج ندرة الكلمات، تلك الندرة المتفاقمة. تكاد مارية لا تتحدَّث لغة هذا البلد، ولعلَّها لا تفهم منها إلَّا قليلًا. وعلى الرغم من ذلك، فهي تتجاوب وبعض الأشعار. إذ يشتدُّ عوز أمي إلى المجاز والرموز، يومًا بعد يوم.

تؤثر قصائد الحبِّ، تلك الكلمة التي تردِّدها أمي مئة مرة مع كل تلاوة.

t.me/qurssan

عائدًا بأمي، وقد ألبسها بالطو المُمرِّض الخاص به. كان قد عثر على أمي وهي لا تزال في ثياب النوم، جالسةً في إحدى الساحات، تنتحب وتطرِّز قطعة من التريكو. بَيْد أنها لا تعرِّفَته، ولا قبلَت أن يجلس برفقتها على المقعد نفسه. مدَّ لها ذراعه فتلمَّسَت بشرته الداكنة مفتونةً ثم عادَت إلى التطريز. كانت أمي تترقَّب وصول جوزيف على متن القطار العسكري، لن تبارح مكانها وإلَّا فقدَته مرة أخرى. وعلى الرغم من ذلك، فما كاد بيدرو إرنستو يخبرها بأن إيمانويل الصغير في حاجة إليها حتى أقبلَت سعيدة، وجاءت سيرًا بجوار المُمرِّض.

بعد مضي ثلاثة أشهر، أعلن بيدرو إرنستو والخالة ميرنا خطوبتهما.

t.me/qurssan

بالأمس أرَتني ماداليا أن أمي لم تعُد قادرة على التطريز كما في سابق عهدها. صارَت مارية تُخطئ الغُرَز بسهولة، وتصنعها طويلة، متفاوتة. وعلى الرغم من ذلك، تقول لها ماداليا إن قطعة التريكو «في غاية الجمال»، وإن «إيمانويل سوف ينعم بالدفء والراحة». أكاذيب عذبة، من قبيل الشفقة. ثم تعيد ماداليا تطريز القطعة في بيتها ليلًا، كي تسرَّ بها أمي في صباح اليوم التالي.

تلوتُ عليها المزيد من القصائد. إذ تصرُّ ماداليا على أهمية الأشعار لعلاج ندرة الكلمات، تلك الندرة المتفاقمة. تكاد مارية لا تتحدَّث لغة هذا البلد، ولعلَّها لا تفهم منها إلَّا قليلًا. وعلى الرغم من ذلك، فهي تتجاوب وبعض الأشعار. إذ يشتدُّ عوز أمي إلى المجاز والرموز، يومًا بعد يوم.

تؤثر قصائد الحبِّ، تلك الكلمة التي تردِّدها أمي مئة مرة مع كل تلاوة.

t.me/qurssan

«دعني والوهم،
فإن هي إلَّا أحلام
تُخْمِدُ الألمَ الغريبَ المُبرِّح،
تعبتُ من ليالي المرارة،
تلك الليالي التي
كانت طويلة الأمد،
قبل الحبِّ».

«قبل الحبِّ...».

«ما عدتَ ترغب شغفي النقيَّ كلَّ النقاء،
دع عنك الكلمات، وإن كانت صغيرة...».

«قبل الحبِّ... قبل الحبِّ... الحبِّ...
شغفي النقيّ كلَّ النقاء».

t.me/qurssan

المكان: المستشفى. كانت الخالة ميرنا تعرفه تمام المعرفة. استطاعَت هي وأمي الهرب من دون أن تجذبا إليهما انتباه البنادق النصف آلية.

سألتُ عمَّا إذا كانت أمي تعمل معها في المستشفى آنذاك. فنظرَت إليَّ خالتي بضع ثوانٍ، مطرقةً. ما دامَت لم تعمل هناك، فلعلَّها كانت نزيلة المستشفى، مريضة. أشاحَت خالتي بعينَيها وأشعلَت سيجارة. «أنا في حاجة إلى الخروج، من الضروري تهوية المكان من أجل مارية، كما تعلم».

نظرتُ إليها مُبدِيًا عينَيّ تشيان بمعرفة الإجابة. على الرغم من جهلي بها.

t.me/qurssan

يتقارب الشبه بين مارية وشبحها يومًا بعد يوم، شبح ليالي الشرود في أرجاء البيت المعتم.

ما عاد المشي سهلًا عليها. بل إن البيت صار أكبر حجمًا، وأصبح يمثِّل تحدِّيًا يوميًّا في وجه خطواتها الصغيرة. بينما كان الجهد المبذول يزيد شيخوخةَ الوجه المبكرة قسوةً على قسوة، مع الأخذ في الحسبان سنوات عمرها القليلة.

اقترح بيدرو إجراء بعض التغييرات. والآن انتقلَت مارية إلى حجرتي. فنزعتُ عن الجدران صفحات مجلات المراهقة.

حجرتي أصغر حجمًا، وقريبة من المطبخ والنباتات التي تحبُّها أمي حبًّا جمًّا. صبغنا شعر أمي بصبغة خفيفة، ونصبنا من أجلها سريرًا من تلك المُستخدَمة في المستشفيات، وحواجز تقيها أطراف قطع الأثاث الحادة. نقلنا من البيت منضدة الزينة ذات المرآة التي كانت مارية تكثر من الحديث إليها في الآونة الأخيرة.

t.me/qurssan

وعلى الجدار المجاور للفراش، علَّقتُ أيقونة القديس ميخايلو والصور الثلاث.

t.me/qurssan

. أَلِفتُ مادالينا أكثر مما ينبغي. فهي إلى جواري دومًا، ترافق أمي باهتمام وعطف. وترى فيَّ البطل الذي لم أكُنه يومًا. هي عزائي، وهي قوتي. وعلى الرغم من ذلك، فلا هي قالَت «نعم»، ولا أنا سألتُها يومًا.

ما زالَت مادالينا وسطنا، حتى الآن، وإن لم تعُد الإبر تستقرُّ بين يدَي مارية. تطرِّز أمي الثياب من أجل الطفل الذي كنتُه ذات يوم. أما مادالينا، فتمسك أصابعها الملتوية بحرص، وتمرُّ بهما على الخيوط المتشابكة لتتلمَّسها. تصف لها كل غرزة كي تشاطرها تطريز القماط بذهنها، قماط الطفل الذي كنتُه. تبتسم مارية في سلام، وتكاد تغفو. تُرقِدها مادالينا برقَّة الابنة، وتجعل لها ملاذًا من الحنان والأغطية الناعمة.

منزويًا في ركن من أركان الحجرة، في صمت ونشوة، أحلم بأن أكون لها إلى الأبد. غير أني لم أسألها يومًا.

لا داعي إلى التألُّم الآن وقد ظهر شخص آخر في حياتها. رأيتُها

t.me/qurssan

معًا لأول مرة على خشبة المسرح، حيث كان هو السيد مالك مزرعة قصب السكر، أما ماداليا فكانت هي الجارية المُتَّضعة. ثم رأيتُهما وهما يؤدِّيان دور الزوج والزوجة، ربِّي الأسرة التي تعاني من خلافات روحية صريحة، وتبتهل إلى الرَّب ليحفظ المرشدين الصالحين. كما رأيتُهما وهما يؤدِّيان دور المؤمنَيْن اللذين مرَّا بساحة حافلة بالأسود، شهادةً على قوة إيمانهما، وهما يمجِّدان اسم المسيح.

يبدو أن صداقتهما نشأت في الآونة الأخيرة. ربما سألها.

ستحضر ماداليا في أيِّ لحظة. ولذا أحاول إطفاء مشهد الحبِّ المجحف من عينَي. بالأمس رأيتُ القبلة وأنا في طريقي للخروج من الكلية. كان ينتظر نافد الصبر، بينما هي تقترب منه شاردةً، ثم تعانقا بقوة وعلى مهل. باح الجندي الروماني بسرِّهما حين مسح بيده على شعر المرأة المُتحوِّلة إلى المسيحية. ألَّفَ بينهما الإيمان بالحياة بعد الموت على خشبة المسرح والشغف المُتوهِّج بتلقين العقيدة لأولئك الذين لا يعرفون أسرار الروح. أما أنا فأكتفي بالمراقبة، وأنا التلميذ في كل شيء. لم تكُن تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ماداليا بين ذراعَي شخص آخر. ولكن الحال لن يدوم إلى الأبد. فلسوف أتحلَّى بكل ما في العالَم من صبر، وأترقَّب اللحظة المواتية، وأتدرَّب في صمت على السؤال الذي لم أطرحه يومًا. لا ضرورة لاستحضار الماضي والعيش فيه الآن.

تصرخ أمي باسم بيتَر، مُعذَّبةً. ومرة أخرى، تسقط الطاولة المجاورة للفراش على الأرض. تتنهَّد الخالة ميرنا، ويُصفَع الباب

t.me/qurssan

بقوة. أسمع اسمي، وأُضطَرُّ إلى التخلّي عن ملاذ الكتب. أريد النسيان، فلا أستطيع إليه سبيلًا.

t.me/qurssan

لم يقضِ الخال بيتَر نحبه في الكهف.

تعظِّم أمي تلك الصورة، صورة الطفل التائه. ولذا درجَت الخالة ميرنا على ترك بيتَر في طفولته، لئلَّا تزيد مارية شفاءً على شفاء. من المؤلم ألَّا نذكر أولئك الأقرب إلى قلوبنا، ألَّا نذكر الجوهري من الأشياء. ولقد نسيَت أمي بيتَر وهو في مرحلة ما بعد الثامنة من العمر.

«فقدتُ أخي في الحرب». تتنهَّد الخالة ميرنا ليبدرو إرنستو وهما يعدَّان قائمة المدعوين. فأتخلَّى عن الرواية التي أطالعها، مُتأثِّرًا. تبتسم الخالة سائلةً: «ما الخطب يا عزيزي؟» تهزُّ الأوراق بين يدَيْها وتردف: «فيمَ نظرات الدهشة هذه؟».

انتُشِل خالي من الكهف وهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، انتُشِل وقد ازرقَّت شفتاه، وتلوَّت يداه الصغيرتان، وخبا صوته في حلقه مُنذِرًا بأن احتمالات نجاة الطفل ضعيفة. وعلى الرغم من ذلك، نجا بيتَر بفضل ابتهالات جدِّي وحساء الجارة الشافي. شبَّ قويًّا

t.me/qurssan

معافى. إنها معجزة. لم يعاود رعي الخراف يومًا، وإن كان يعين أباه على شؤون الزراعة. بُعِث بيتَر إلى مدرسة في مدينة أخرى. كان يحلم بالرحيل عن القرية وتوفير مستقبل مشرق للأسرة. «فتنَته الكتب، وكان يقرأ لنا أجمل القصص بصوت مسموع». تربَّت خالتي على وجهي وهي تداري عَبْرةً، ثم تردف بقولها: «كان يشبهك في الطفولة يا عزيزي، في أول يوم من أيام الدراسة».

شملَته مارية والخالة ميرنا بحمايتهما من كل شرٍّ. أحبَّتا شقيقهما الأصغر حبَّ العبادة، كما لو كان ربًّا قريب المنال.

نجا بحياته من العاصفة الثلجية الأشدِّ قسوة، فلم أعلم بنجاته. على مدى أعوام طوال اختبأتُ في كهفه الجليدي، ورحتُ أترقَّب أن يُعثَر عليَّ أنا والخال بيتَر معًا، بعيدًا عن هذا العالَم. مرات كثيرة حلمتُ بجسدي مُجمَّدًا. وددتُ لو كنتُ ذا شأن، عصيًّا على النسيان، مثل خالي الطفل. بَيْد أنه عاش زمنًا كافيًا ليرى الحرب بعينَيه. الزمن الذي تستغرقه الحقيقة في الخروج من غياهب العتمة.

عندما كان بيتَر في الثامنة عشرة من العمر، بلغ القصفُ قريتنا. وبعد سقوط القنابل، جاء رجال القوات المُسلَّحة. فاجتاحوا البيوت، ودهسوا المزارع بأقدامهم، ونهبوا الماشية. زُجَّ بالفتيات في الشاحنات والحافلات، وحُشِد الأطفال والشيوخ في ساحة عامة. سَحَلَ جنودُ الأعداء جدِّي وجدَّتي اللذين أدركهما الإعياء بسبب الحصاد، وجرجروهما إلى قارعة الطريق حيث زُجَّ بهما مع

t.me/qurssan

شيوخ آخرين. ومن بعيد رأت أمي والدها يتلقّى ضربة من كعب البندقية، فسقط أرضًا وهو ما زال يعانق جدَّتي الجريحة.

توسَّل خالي بيتَر طالبًا الرحمة. وبكلمات مسالمة، طلب مراعاة الإنسانية من أجل أولئك الأكثر ضعفًا، وعرض على الجنود أن يأخذوه أسيرًا بدلًا منهما. وبمشقَّة، حاول تذكير مواطنيه بواجبات الجندي الصالح. فما كان منهم إلَّا أن شدُّوا وثاقه إلى أحد الأعمدة حتى يتدرَّب عليه المُستجَدُّون من الجنود، وليجعلوا منه عِبرة مُروِّعة لباقي أبناء القرية. طوال سبعة أيام وسبع ليالٍ.

أودُّ السؤال عن أميْ، فيبدو لي أن الخالة ميرنا ما زالت ترى الدماء التي حاولَت نسيانها سدًى.

من دون كلمات، أعتذر إلى پيدرو إرنستو وأذهب إلى الباب المفضي إلى الشارع حتى أبكي موتاي الذين أودَت بهم الحرب.

t.me/qurssan

على أعتاب البيت، تجدني ماداليا وقد تخلّت عيناي عن عادتهما، فأطفال الجبال لا يبكون أبدًا. تشعر بالهمّ الذي استحوذ عليّ. فتفتح ذراعَيْها في صمت، مواسيةً، وتهديني عناقًا.

أنتبه إلى الابتسامة الآتية صوبي، أشعر بنظراتها مُعذِّبة، وأحسُّ بفمي جافًّا. مسكينة ماداليا، يا ملاذ حزني الرحيم... عطر البخور الذي يتضوَّع منها، روحانا المتعانقتان المتباعدتان، شعرها المُلقي بضوئه على وجهها الذي يكاد يكون مألوفًا، الجمال المُطلُّ من عينَيْها اللتين اصطبغَتا بلون السماء العاصفة، يداها المرهفتان، الحقيقة الكامنة في أبسط كلماتها وأكثرها سذاجة، ألمي الخالي من الادِّعاء والقوة والنسيان...

يلامسني صدرها بنعومة، فأذكر حين مددتُ لها يدي حتى أعينها على النهوض من الأرض، بينما الزميلات في الصف الدراسي يصرخن فيها بحماقات، وينتقمن لإحدى الصبايا الأكثر شعبية لأن حبيبها قد شُغِف بماداليا، فيما يظهر. كنتُ أتابع القصة بناظري عن

t.me/qurssan

بعد، فلم يسعني لوم الفتى لأنه رغب فيها، ولا لوم صديقتي لأنها فتنَت الرجال. حُلتُ بجسدي دونها ودون مُعذِّباتها. فأحسستُ بجسدها يلامسني وهي في حمايتي. وابتداءً من تلك اللحظة فزتُ بثقتها، وبحياة جديدة.

t.me/qurssan

يلامس وجهها الودود وجهي، ومرة أخرى أتذوَّق قبلتنا الأولىٰ والوحيدة، نزوتي الصغيرة التي ارتكبتُها مُتأثِّرًا بحرارة البهجة العابرة. أرى هاتين الشفتَيْن المرهفتَيْن وهما تحدِّثانني بعفوية عن المرض، وتغمران بالرفق شقائي المغلوب على أمره قليلًا. ها هي ذي تبدِّد جميع الأحزان التي تعتمل في نفسي بسبب ردود فعل أمي وتدهور حالها المخيف. صوت مادالينا في أذني يكاد يكون نفحةً إلهيَّة. وملمس بشرتها يلهب وجهي. أفكِّر في جميع القبلات، التي لم نتبادلها قطُّ.

تستكنُّ مادالينا على كتفي، والهواء يتلقَّف العطر الآتي من شعرها، بينما أذكر حقول قرية أسلافي، وأنا الذي لم أكُن هناك يومًا. أسير والخالة ميرنا ومارية عَبْر درب ترابي يمتدُّ على ضفة النهر وصولًا إلى البيت الحجري، فألوِّح للطفل الذي تحمله جدَّتي على عنقها وأهرول معهما إلى الباب حتى أكون أول من يلعب لعبة «يحبُّني، لا يحبُّني» ببتلات الأزهار المُقتطَفة على الطريق من أجل

t.me/qurssan

الخال بيتَر الذي ما زال في القماط. تطوّق ماداليا كتفي بذراعَيْها، وإذا هي مارية التي تضمُّني إليها لدى سقوطنا على رصيف القطار، وميخايلو الصالح الذي يخرجني من بطن أمي بيد الحكمة، وبيدرو إرنستو الذي يحضر إلى البيت عائدًا بأمي.

بيدَيْها الخيِّرتَيْن تضمُّني إلى صدرها، فأشعر بالأمان، أشعر بأني في وحدة مطبقة مثلما كان بيتَر عندما انتشله جدِّي من الكهف بغلظته المفعمة بالمودة.

يطول عناق ماداليا مدى الدهر الذي يستغرقه نحيبي. أعرف أن بكائي بلا معنى، وأنه ينطوي على أحزان حيوات أخرى كثيرة، أذرف دموع الخالة ميرنا المهجورة، ودموع جوزيف الذي انتُزع من بيت أبوَيْه، ويجيش صدري بكل الحسرة المحجوبة في ماضي أمي التي لا عزاء لها. تهمس إليَّ ماداليا وتعدني بأن: «كل شيء يمرُّ».

t.me/qurssan

لستُ على يقين من أيِّ شيء، ولكن أمي عادَت البارحة إلى المستشفى، إلى مستشفى أيام الحرب. أنشبَت أظفارها في بشرة الزمن الآخر، وبقوة المهزومين الخائرة راحَت تصارع بساقَيْها. تشبَّثَت يدها بذراعي في مشقَّة، وانزوَت على نفسها في الفراش. لم أستطع إقناعها بأن الجندي الواقف على أعتاب الحجرة لن يعاود انتزاع جوزيف من بين ذراعَيْها أبدًا. وفي غمرة يأسها، كتمتُ في نفسي صرخات الهول والكلمات المرتسمة على شفتَيّها في محاولة مريرة للفهم. راحَت أمي تصارع جلَّاديها اللامرئيين، مُعذَّبةً، وقد ضاق عليها الخناق حتى التصقَت بالجدار.

t.me/qurssan

«لا تتركيني وحدي، يا أختي».

«يا الله، يا رحمن، يا رحيم. اللَّهُمَّ خلِّص أختي من كل شرٍّ، اللَّهُمَّ اطمس على عين العدو فلا يبصرها. اللَّهُمَّ حرِّم عليه المساس بها لو أتى. اللَّهُمَّ انزع عنه الرغبة فيها لو مسَّها. اللَّهُمَّ اضربه بسيف العدل لو رغب فيها، يا رحمن، يا رحيم».

«لا تتركيني وحدي، يا أختي.

لا تتركيني».

«اللَّهُمَّ حرِّم عليه المساس بي لو أتى».

«لا تمسني، أتوسَّل إليك، لا تمسني. لا ترغب فيَّ، أبعِد عني

t.me/qurssan

نظراتك، شهواتك، يدك الثقيلة. لا تُنزِل بي سيفك الناري المُدنَّس بالشهوة، لا تمسني بخسَّتك وقوَّتك الغاشمة. لا.

أبعِد عني هاتين الشفتَيْن المُجرَّدتَيْن من الرحمة، وهاتين اليدَيْن اللتين تشبهان البراثن، وحرَّ الجحيم الآتي من هذا الجسد الدنس، وهاتين العينَيْن المُتوحِّشتَيْن اللتين لم ترِيا الله يومًا».

«يا الله، يا رحمن، يا رحيم، هو ذا وجهي يتَّقد ألمًا تحت وطأة يد العدو الثقيلة، هو ذا جسدي يتعفَّن مُتأثِّرًا بدنس اليد التي تمسُّني، والغضب الذي يمزِّق جوفي وروحي التي انتهكها الشيطان، والرغبة التي باركها الشرُّ، ذلك الشرُّ الكامن في أحشاء العدو، الذي يتسلَّل إليَّ ويجيلني ورمًا خبيثًا، ويجعلني مدعاةً لنفور العالَم، ذلك الألم الذي يتصاعد مرورًا بساقَيَّ، وصولًا إلى روحي الكسيرة، يا الله، يا الله، يا رحمن، يا رحيم.

اللَّهُمَّ ارفع عني لهيب سيف الهول، خلِّصني من الرغبة في الهلاك، ونجِّني من الإحساس بملمس العدو اللزج، وأعفِ خادمتك الأوفى من نظرات الاحتقار.

ألا ترى الوحل على جسدي؟ ألا ترى عدوَّ الإنسان الذي يعتلي جسدي في توحُّش؟ اللَّهُمَّ خلِّصني من كلِّ شرٍّ، يا مالِك يوم الدين.

يا ربَّ أبي وأمي، اللَّهُمَّ ابعث إليَّ ملاكًا، من زرقة السماوات الأنقى، ابعث إليَّ طفلًا بلا آثام، يا رحمن، حتى يخلِّصني من أيدي الرجال الآثمين.

t.me/qurssan

اللَّهُمَّ نجِّني من خواء الكفن. اللَّهُمَّ اجعل التراب يُهال عليَّ، يا مالِك يوم الدين، اللهم طهِّرني من الوحل العالق بلحمي الذبيح».

t.me/qurssan

«لقد سحلوا النساء وجرجروهن إلى الشاحنة يا إيمانويل». تقول الخالة ميرنا وقد اتَّخذَت قرارها بأن تبوح لي بماضيَّ الحقيقي. «راح الجميع يصرخ باستماتة. حكَت لي أمك أن جنديًّا سدَّد ضربة من كعب بندقيته إلى وجه المرأة التي كانت إلى جوارها، فخرسن جميعًا حتى بلغن المستشفى. لم تفهم إحداهن مما يجري شيئًا، وإن توجَّسن الأسوأ».

أعرف ما الأسوأ. قرأت عشرات القصص المشابهة. حُمِلَت النساء على متن الحافلات أو الشاحنات إلى أبنية مهجورة، ومدارس شاغرة، وبيوت طرد الجنودُ ساكنيها حتى يتَّخذوا منها سكنًا وعشًّا للكراهية. يغلي الدم في عروقي لمرأى أمي في واحدة من قوافل الجحيم تلك.

وقعَت الخالة ميرنا حبيسةً في جناح الزوار مع زميلات العمل حين اجتاح الجنود البناء وقتلوا الرجال والشيوخ والمرضى أصحاب الحالات الأشدُّ خطورة. كان المستشفى مهجورًا، وخلا إلَّا من

t.me/qurssan

بضعة جنود يحرسون المدخل ويصرخون في الناس لتوجيههم إلى الطريق الواجب السير فيه. التقَت خالتي بأمي في جناح الزوار، ذلك أن الجنود قد جمعوا كل النساء في مكان واحد، وبدؤوا ينتقون بعضهنَّ لإرسالهن إلى الطابق العلوي.

كان أحد الجنود جارهما في القرية، فتعرَّف عليهما وأبلغ الضابط الأعلى مرتبةً. وعلى الرغم من ذلك، جُرجِرَت الشقيقتان وضُمَّتا إلى مجموعة المختارات، بين القهقهات الخبيثة وموسيقى الأكورديون القاسية. «صعدنا الدَّرَج صفًّا واحدًا، في هلع وصمت، وقد خفضنا عيوننا إلى الأرض امتثالًا لأوامرهم. ثم أخذ الرقيب الذي تقدَّم المجموعة يجذبنا واحدة تلو أخرى، ويزجُّ بنا في الحجرات. وعلى أعتاب كل حجرة، وقف جندي آمرًا بأن نستلقي على أسِرَّة المستشفى ونلزم الصمت. تجمَّعَت أعداد منا في العنابر الكبيرة، حيث افترشَت كل واحدة سريرًا، وراحت تبكي في صمت».

اطَّلعتُ على تقارير مسهبة بشأن تلك الممارسات الدنيئة، التي كانت بالنسبة إليهم مُجرَّد عمل من أعمال الحرب، إستراتيجية ترمي إلى القضاء على العدو، تُماثِل تدمير الجسور أو اجتياح الأراضي القيِّمة. بل إن عددًا غير قليل من مجرمي الحرب أقرُّوا بأفعالهم وكأنها مناورات عسكرية محدودة الأهمية. كان وراء الأمر برمَّته مُخطَّط خبيث، تجلَّى في الأوامر الباردة التي أصدرها سادة الحرب، زِد على ذلك الوحش المُتخفِّي داخل كل قلب من تلك القلوب السود. كانوا يريدون إبادة أبناء عرقنا وأهلنا، فلم يجدوا أفضل من إذلال شعبنا طريقةً لنيل مرادهم.

t.me/qurssan

«إيمانويل، ليس على أمك ذنب. لا هي ولا أيُّ واحدة منا. لم يكُن أمامنا خيار. من جهتي قرَّرتُ التحلّي بالسلبية والخضوع، ولَّيتُ هاربةً إلى ما وراء القمر بخواطري، نسيتُ عيش تلك الساعات المُروِّعة. أما عزيزتنا مارية فلم يسعها ذلك، لم تكُن مُزوَّدة بأسلحة المقاومة نفسها».

عملَت الخالة ميرنا في المستشفى، حيث كان كل يوم بمثابة درس جديد في قسوة البشر، وشدَّة يتعلَّم المرء نسيانها حتى يتمكَّن من المضي قدمًا. «أمَّا مارية فما كانت تعرف الرجال وقدرتهم على الإيلام. يا عزيزي، انظر إليَّ، انظر إلى عينَيَّ: لطالما كانت وما زالت أمك تحبُّك حبًّا جمًّا، لا تنسَ هذا ما حييتَ».

أترك الخالة ميرنا تبكي لتبعث الحياة في القصة التي ما عدتُ أعرف ما إن كنتُ أودُّ سماعها. ولكن أبي كان في ذلك المستشفى، وما عاد ينقصني إلَّا النزول بذهني على دَرَج الهول والذنب، واختلاق طفولة سعيدة.

t.me/qurssan

لم أستأنف ذلك الحديث الذي دار بيني وبين الخالة ميرنا يومذاك. تركتُ جدران المستشفى تتلاشى بضعة أيام، كُنَّا في حاجة إلى التقاط أنفاسنا قبل أن نغصَّ بتلك الذكرى النائية. ولكني رحتُ أفكِّر في النساء اللاتي استُعبِدن طوال شهور، وأُرغِمن على العمل القسري، وبقين تحت رحمة أهواء العساكر الذين استولوا عليهن. وقد تلقَّى الجنود أوامر بألَّا يسمحوا لامرأة واحدة بالإجهاض.

أما النصوص المُتعلِّقة بالحرب فراحَت تنزع الواقعية عن ماضيَّ شيئًا فشيئًا، تلك النصوص التي انصرفتُ إلى دراستها مستغرقًا بنهم شديد.

t.me/qurssan

نتناول القهوة جالسَيْن في شرفة البيت، وقد ألجمَت الذكريات لسانَيْنا، عند ذاك تفتح الخالة ميرنا أبواب عنبر المستشفى مُجدَّدًا. «أرغم الجنودُ مارية على الاستلقاء في إحدى غرف المستشفى. خطر لها أنهم سوف يقتلوننا جميعًا. فجعلَت تصلّي من أجلي بصوت خفيض، ولم تسكت عن الصلاة حتى تنامَت إلى سمعها جلبة القوات وهي تقترب من البناء. تصوَّر أن السعادة غمرَتها ظنًّا منها بأنّ جنودًا آخرين قد جاؤوا لمحاربة الأشرار، وتخليصنا. أخذ وقع أحذية العساكر على الأرض يعلو شيئًا فشيئًا، وفوج الجحيم يصعد الدَّرَج ويقف أمام العنبر الذي احتُجِزنا فيه. ثم خيَّم السكون الذي يسبق العاصفة».

وصفَت لي الخالة ميرنا مشهدًا تكرَّر في أحد التقارير التي طالعتُها: دخل الجندي المُستجَدُّ الأول، فتى، «يصغر بيتَر عمرًا». فأمره الجندي الواقف على أعتاب الحجرة بأن يخلع ثيابه. قالَت الخالة ميرنا إنه كان يرتجف، أما هي فتركَته «يفعل بها ما يشاء»،

t.me/qurssan

ذلك أن رأسها رحل بعيدًا، بعيدًا، وظل يبتعد شيئًا فشيئًا. «راح الفتى يؤدِّي مهمته فوق جسدي، يكاد لا يدري ما هو فاعل. بينما لزم جنديٌّ آخر مكانه على أعتاب الحجرة، وراح يراقبنا، غير أني كنتُ في مكان آخر داخل المستشفى، برفقة أمك، كان رأسي معها، أتفهم؟ انشغلتُ عليها، علمًا مني أن شيئًا في قرارة نفسها سوف ينكسر إلى الأبد». أصرَّت خالتي على جهل أمي بالرجال، وأكَّدَت لي أن تلك هي الحقيقة. «لو سبق لها أن عرفَت الرجال، فلربما لم تتعذَّب بالقدر نفسه، ولربما تمكَّنَت من الهرب معي بخواطرها، ونسيت اللحم الراقد على الفراش، وخلَّصَت الروح الكامنة في الجسد».

أتصوَّر أن مارية لم تدرك ما يجري حين دخل أول جندي مُستجَدٌّ إلى الحجرة، ممسكًا بالزيِّ العسكري في يده، وليس على بدنه إلَّا الثياب الداخلية. لا بد أنها انطوَت على نفسها في السرير، وحاولَت الدفاع عن نفسها قدر المستطاع. «أصدر الجندي الواقف على أعتاب حجرتها أوامره إلى المُستجَدِّ، فانهال على أمي صفعًا حتى خارَت قواها. سمعتُ الأمر برمَّته من مكاني على الجانب الآخر من الجدار، عاجزةً عن فعل أيِّ شيء. بدا لهم من المُسلِّي أن يحتجزوا الشقيقتَيْن في حجرتَيْن متجاورتَيْن، وأبى أحد الحرَّاس إلَّا أن يصف لي ما تمرّ به مارية آنذاك».

ترنو الخالة ميرنا إليَّ، بعينَيْن زائغتَيْن، أما أنا فلا أرى أكثر مما رأيت. تسألني ما إن كنتُ لا أزال راغبًا في سماع القصة، فأكاد

t.me/qurssan

لا أتمكَّن من الإيماء لها بالإيجاب، شاعرًا بالخزي. تُطرِق خالتي، والصمت كثيف، مستغلق، مثله كمثل جدار المستشفى. لا أدري ما إن كنتُ أرغب في هدم الجدار. أطلب منها أن تحدِّثني عن أبي، عن أبي وحسب.

«أبوك؟».

أجل، جوزيف، أبي.

تضيع الخالة ميرنا بضع ثوانٍ ريثما يحدِّد ذهنها موقع جوزيف في الذكريات التي سمعَت أمي تروِيها. أدرك الشعور بالخزي فأترك عينَيَّ تزحفان على أرضية الشرفة.

«يا عزيزي، تَحلَّ بالقوة».

أعرف أن الخالة ميرنا تقولها كي تستأنف سرد القصة، ولكن صدري يغوص ويتلاشى في خواء لا اسم له.

t.me/qurssan

حطَّمَت الخالة ميرنا سياج الذكريات الأشدَّ مرارة. وبالحطام المتداعي ابتنَت حياةً جديدة على الجانب الآخر من العالَم، وسمحَت لنفسها بالميلاد من جديد. جعلَت من نفسها جاريةً كي تطمح إلى الحرية يومًا: وعلى الرغم من كل التجارب التي خاضَتها في عنبر المستشفى أيام الحرب، عملَت خادمةً، ولم تمانع الالتحاق بدورة تدريبيَّة أخرى لإعداد مساعدي التمريض في هذا البلد، بعد أن تمكَّنَت من جمع المال اللازم. وهكذا تعلَّمَت مصطلحات المهنة بلغة هذه الأرض الغريبة، وتعرَّفَت بأصدقاء لا يسعون إلى تحقيق المصلحة من ورائها. بدأت مرة أخرى، بدايةً نقيَّةً، أشدَّ ما يكون النقاء، وكأنها لا ماضي لها.

وإذا بميرنا الصغيرة، التي كانت تقطف الأزهار على الطريق لتهديها إلى أمها وترسم بسمات صغيرة على وجه شقيقها «آخر العنقود»، تكاد تكون واحدة من شخوص كتاب منسي. وعلى الرغم من ذلك، فهي ما زالت تملك القوى للكافية للالتحاق

t.me/qurssan

بالكلية، وتجهيز حفل الزفاف، وإعالة أختها التي تخبو رويدًا رويدًا.

اختارَت الخالة ميرنا ألَّا تموت في تلك الحرب. وكان النهوضُ من بين أنقاض المعركةِ سبيلَها للعيش في سلام، على الرغم من ذاكرتها المُمزَّقة تحت وطأة أهوال الماضي. كانت في حاجة إلى تنشُّق الهواء تحت أشعة الشمس، كي أحظى أنا وأمي بقليل من الضوء في بيتنا الميتافيزيقي المعتم، بيت القرية.

«أرغموا كثيرين، يا إيمانويل، أرغموا كثيرين على أن يفعلوا بنا ما فعلوا. أرادوا تطهير البلد من أهلنا، الأمر الذي يفسِّر المُخطَّط برمَّته واتِّخاذ الجنود مواقعهم على أعتاب الغرف بينما ينفِّذ المُستجَدُّون الأوامر وهم لا يملكون خيارًا. أما جوزيف، فقال: «لا»».

وكان الحقُّ في كلمة «لا». أرنو إلى الخالة ميرنا، من دون أُفق. أما جوزيف، فقال: «لا».

t.me/qurssan

كانت أمي خائرة القوى، تكاد لا تتبيَّن الوجوه الجديدة في سريرها كل نصف ساعة. وفي كل مرة كان الألم المُرتقَب هو نفسه، ووجه الجلَّاد هو نفسه. «عندما دلف جوزيف إلى الحجرة، كانت هي شبه نائمة. حكَت لي عزيزتنا مارية أنه ألقى الزيَّ العسكري على الأرض ومضى إلى السرير ببطء».

أرجو أن تقول الخالة ميرنا إن أمي حاولَت، الانطواء على نفسها مرة أخرى، وهي تكاد تكون مدفوعةً بالغريزة، من دون أمل في القدرة على الدفاع عن نفسها. بَيْد أنها تومئ برأسها في حيرة. «ما عادَت لمارية دموع تذرفها، ولكنها أحسَّت به يجفِّف وجهها بأصابعه». أصابع طويلة خشنة، كما وصفَتها أمي ذات مرة. «عند ذاك رأت عينَيْه، الزرقاوَيْن، بلون سماء صافية كلَّ الصفاء. كان طفلًا. قالَت مارية إنها رأت طفلًا، فيما يبدو، مع أنه كان فارع القوام مثلك يا عزيزي. رأت في عينَيْه طفلًا. لا أدري على وجه التحديد».

t.me/qurssan

كم مرة فكَّرتُ في هاتين العينَيْن وأنا لا أفهم شيئًا. طفل باللون الأزرق... أتراها صورة روحانية لي أنا؟ صورة من المستقبل انعكسَت على صفحة عينَي أبي؟ أوهام حبٍّ راودَت عقل أمي؟ لم أفهم أيَّ شيء. إذًا، هل كان أبي هو العدو؟ الآن تخطر لي صورة جوزيف وهو يشدُّ وثاق خالي بيتَر إلى عمود الأهوال. أشيح بوجهي حسرةً، فأنا لا أريد إضافة مخاوف جديدة إلى تلك الحقائق القاتلة بأن أمي قد حبلَت بي في غمرة القصف والسكوت.

«كان رجلًا شريفًا مثلها يا إيمانويل. أسنَد رأسَ مارية إلى كتفه، احتضنها بحنان، وطفق يبكي هو الآخر، شاعرًا بالذنب أو الخزي، كما يروق لي التفكير. وفقًا لما تقول أمك، فقد طال عناقهما مدى الدهر الذي استغرقه نحيبهما. شعرَت وكأن الأمر برمَّته كابوس مزعج، فجاء هو حتى يخلِّصها من العار والشقاء. كانا لا يزالان متعانقَيْن، كطفلَيْن تائهَيْن، وإذا الباب ينفتح ويدخل منه الجندي ويجرجره إلى خارج الحجرة بينما هو يكيل له السباب لأنه لم يكُن رجلًا ولم يؤدِّ واجبه مع مارية. تقول أمك إنه خرج وهو ما زال يبكي ويصرخ لاعنًا. أما هي فجلسَت على السرير وحاولَت أن تحفظ في ذاكرتها وجه المُستجَدِّ، الطفل الساكن في العينَيْن الزرقاوَيْن، والشعر الذي لم ترَ شعرًا أشدّ منه سوادًا. كان قد نسي الزيَّ العسكري ملقًى على أرض الحجرة، في غمرة الصراع الضاري الذي خاضه لئلَّا يتركها وراءه. وقبل أن ينقضَّ عليها مُستجَدٌّ آخر، لم تتمكَّن مارية إلَّا من رؤية الحرف الأول من اسمه مُطرَّزًا على الزيّ العسكري».

t.me/qurssan

جوزيف. اسم مُختلَق لأب زائل يعود إلى ذلك الماضي المُؤلَّف من المستحيلات. حَرْفٌ من التمرُّد وسط فصل كامل من الهول. أبي جوزيف. عبارة من وحي الخيال، في قصة حبٍّ ماتَت في المهد.

لقد انتصروا، انتصر سادةُ الحرب. حطَّموا روح أمي، واجتاحوا مستقبل كل واحد منا بذكرى تفتقر إلى الإنسانية. أما أنا فلا أعدو أن أكون أداة الغضب الإلهي المُسلَّطة على مارية وأهلها. الابن الذي لم ينجبه جوزيف قطُّ.

تبوح لي الخالة ميرنا بالسرّ: حلمَت به مارية سبعة أيام وسبع ليالٍ، حتى استطاعَت خالتي وأمي الهرب من المستشفى معًا. من أجله استجمعَت أمي القوة اللازمة للهرب.

على مدى شهور، بقيتا متواريتَيْن عن الأنظار في القرية، في بيت جدِّي وجدَّتي المهجور. كانت مارية مُصِرَّة على رؤية عزيزها جوزيف مرة أخرى، ولم تترك لحظة تمرُّ إلَّا وتحدَّثَت عنه في هذيان من الهول والجوع. كانت تنام بمشقّة، والأشباح تطرقها، وحبُّها الذي انتُزِع من بين ذراعَيْها يشغلها. فكانت الخالة ميرنا هي التي قرَّرَت الهرب من الحرب وجعلَت تغذِّي في نفس مارية وهم الذهاب في أثر والد الصغير الذي يكبر في بطنها.

واتتهما الشجاعة حين عاد إلى القرية الجنود الأعداء حتى يضعوا أيديهم على البيوت ويحتجزوا فيها النساء اللاتي جرجروهن كغنائم الحرب. حمَلَت الخالة ميرنا ومارية القليل من المتاع الذي

t.me/qurssan

تسنَّى لهما جمعه ثم رحلتا بحثًا عن ذلك الرجل الذي لم يكُن له وجود إلَّا في سرابات أمي.

«أتحمَّلُ الذنب كاملًا يا إيمانويل. لقد فعلتُ ما فعلت مدفوعةً بحبِّي لأختي ولك، فما كان من الممكن أن تُولَد وتكبر على تلك الأرض الملعونة. ولكن جوزيف، يا عزيزي، ذلك الجندي المُستجَدُّ، أيًّا كان اسمه... كان أبوك بطلًا، بارك الله فيه. هو الذي منح مارية القوة اللازمة لاحتمال تجارب الحرب».

وبصوت مكبوت، تحدِّثني الخالة ميرنا عن الحبِّ، وتعزِّيني بصورة أمي التي استجمعَت قواها على سرير المستشفى بعد أن التقَت بأبي، على الرغم من الانتهاك الذي تعرَّضَت له طوال سبعة أيام وسبع ليالٍ كما لو كانت غنيمة حرب من الجمادات.

ولكننا لا ندري من يكون أبي، يا خالة ميرنا.

t.me/qurssan

قد تستغرق الحقيقة ثمانية عشر عامًا حتى تنجلي. وقد تطول مدة مرض أمي ما بين ثلاثة وتسعة أعوام. أما قصة حبِّنا أنا وماداليا فقد يكون عمرها أربعة أعوام.

بالأمس، أقسمَت الخالة ميرنا وبيدرو إرنستو على أن يحبَّ أحدهما الآخر حتى يفرِّق بينهما الموت.

أمي عاجزة عن الكلام منذ شهرَيْن. تجيب بكلمات مقتضبة أو بإيماءة من أجفانها المتعبة. طلبَت مني ماداليا ألَّا أفقد الأمل، وبفضل إصرارها ما زلتُ أتلو قصائدي على مارية. ولكن أمي غابَت، اختبأت في كهف الخال بيتَر. لستُ أدري. عادَت إلى المستشفى وهو في أوج الحرب، ومنذ تلك الليلة ضلَّت سبيلها إلى غير رجعة، مُتوغِّلةً في واحد من دروب ذكرياتها المحجوبة، رويدًا رويدًا.

أحسُّ بوجود أحد هناك، فما زالت عيناها تحدِّثانني عن العواطف التي تعتمل في روحها، بَيْد أن جسدها الذي يكاد يكون

t.me/qurssan

هامدًا يُشعِرني بالحداد على مارية التي لم تعُد على قيد الحياة. ها هي أمي في سبيلها إلى الرحيل.

استعان بيدرو إرنستو بخدمات مُمرِّضة للعناية بأمي. فهو والخالة ميرنا يرغبان في رؤيتي وقد عُدت إلى العالَم مرة أخرى، على سبيل إبعادي شيئًا فشيئًا عن القرية حيث وقعَت أمي أسيرة المرض والحرب. السيدة آنا طيِّبة، مفعمة ببهجة يحسدها المرء عليها، بهجة العيش التي يتميَّز بها أولئك الذين لا ينذرون أنفسهم لمشكلاتهم. تتحلَّى بالصبر وتحافظ على المسافة اللازمة للاعتناء بمارية من دون أن تشقىٰ بالأمر أكثر مما ينبغي. السيدة آنا تكبر أمي عمرًا، ولكن إيمانها بالحياة بعد الموت جلب إلى هذا البيت سلامًا لم يسبق لي أن وجدته إلَّا في عينَي ماداليا. من رأى في كل شيء رسالة عظمى، وفي كل شدَّة من شدائد الماضي درسًا للمستقبل، لم يذُق للشقاء طعمًا.

رحتُ أهدِّئ من روع أشباحي، رويدًا رويدًا. استطعتُ انتشال الخال بيتَر من الكهف، ورأيتُ في عينَيه فرحة العودة إلى دفء القرية المعهود. ساندتُ السيد ميخايلو وهو على فراش الموت، وقدَّمتُ لربان السفينة الذي تبنَّاني طوال أسابيع تكريمًا عسكريًّا. صفحتُ عن الخالة ميرنا لأنها زجَّت بي في أكاذيبها، وتفهَّمتُ لماذا جعلَت أمي من تلك الأكاذيب حقيقتها الوحيدة.

لطالما أحبَبْتني على طريقتها، ورأت فيَّ رِقةَ الشَّعر الأسود وزرقةَ النظرة السماوية حين ودَّعها حبيبها جوزيف. لم ترفضني يومًا، وإن

t.me/qurssan

وجدَت أمامها العدو مُخلَّدًا في شعري الزاهي وعينَيَّ اللوزيتَيْن المحزونتَيْن، ذلك الإرث الذي أخذتُه عن واحد من جلَّاديها. آثرَت تنشئتي على ذكرى أبٍ مُحبَّب، وبطل. وبفضلها صرتُ رجلًا سليمًا من ذلك العجز الروحي الذي تورثه في النفس حربٌ لم ينتصر فيها أحد.

أما ذلك الجندي المُستجَدُّ الذي استلهمَت منه شخصَ أبي، ذلك الأب المُؤلَّف من خواطر مبهمة، فكان بطلًا بحقٍّ.

لقد أنقذ أمي من حيلة حافلة بالشقاء، ومنحها أملًا في الإنسانية، أملًا لم تجده نساء كثيرات من شعبها وسط شدائد الحرب. أما هو فلم يبارح أرضه، فهو ربما كان يجترُّ الذكريات المريرة، ذكريات ساحة المعركة، أو ربما كان يسترجع سعادته بإنقاذ حيوات أخرى مثلما أنقذ حياة أمي. لعلَّه اليوم برفقة ذرية صالحة تعينه على الواجبات اليومية، وأصدقاء ينسى معهم الساعات الأشدَّ حزنًا أو يحتفي معهم بأحلام الحصاد. ربما كانت مارية هي الشبح الذي يبثُّ في نفسه الذعر، أو ربما لم تكُن أكثر من ذكرى حزينة تتماوج في الماضي البعيد.

ولكن جوزيف عبَرَ معنا المحيط. بل إن وجوده معجزة من تلك المعجزات التي يُكثِر ربُّ السيد ميخايلو من صنعها دومًا، وهكذا كان مولدي أيضًا. ذلك أن جوزيف ولفتة الطِّيبة التي بدرَت منه جعلا وجودي في هذا العالَم ممكنًا. وبطريقة ما، أمَّن جوزيف لنا جميعًا حياةً كاملة على هذه الأرض الجديدة. بارك الله الطفل الساكن في عينَيْه الزرقاوَيْن.

t.me/qurssan

أحنُّ إلى جوزيف، أبي الوحيد. وإلى مارية، أمي الحبيبة. أودُّ لو رأيتُهما هنا مرة أخرى، في هذه الشرفة، وقد أخذ كلٌّ منهما بيد الآخر، وهما يراقبان إيمانويل الصغير الذي يخطو أولى خطواته، والخال بيتر يسانده بيدَيْه الرقيقتَيْن. أحنُّ إلى ضحكات الخالة ميرنا التي تعلو كلما بدَّل أبي موضع النباتات لمُجرَّد إغاظة أمي. ولا أنسى بهجتها حين تلقَّيْت أول كرة قدم لي من بيدرو إرنستو، حبيبها الأول والوحيد. أودُّ لو حملني الخال بيتَر على كتفَيْه مرة أخرى، حتى تأمرني أمي بأن أتركه وشأنه. كنتُ سأبذل كل ما أملك حتى أتنشَّق مرة أخرى تلك الرائحة الحلوة الآتية من مربَّى جدَّتي، وأحسُّ بيدَي جدِّي وهو يساعدني في رعي خرافنا القليلة. أفتقد دراجتي الأولى، أفتقد الذهاب إلى موقف الحافلات لاستقبال أبي بالدراجة التي أقودها وأنا لم أعُد في حاجة إلى السنَّادات. أكاد أذكر زمنًا كنتُ فيه صغيرًا أخاف الظلام، وأتسلَّل من تحت الأغطية إلى فراش الزوجَيْن، فيطلع النهار عليَّ وأنا بين أمي، وأبي: جوزيف. أكاد أذكر صلاتي إلى القديس ميخايلو، جاثيًا على ركبتَيَّ، مُردِّدًا كلمات أبي، وأنا لا أحوِّل عنه عينَيَّ الزرقاوَين كسماء خلَت من السحب.

أيُّ حنين!

تعبر مادالينا الشارع راسمةً على وجهها ابتسامة. تودُّ الاستماع إليَّ اليوم وأنا أتلو الشعر. وعدَتني بأن تُحضِر طعامًا شهيًّا ونسيجًا مُطرَّزًا مُعَدًّا من أجل مارية. اشترَت من أجلي كتاب سوناتات بتراركا بترجمة كامويش، وتشعر برغبة جارفة في سماعها بصوتي الخجول، صوت اللاجئ.

t.me/qurssan

تدرَّبتُ على سؤالها، بقلب مخلص. وهأنذا مفعم بالشجاعة. اليوم لن أسمح لجندي واحد، كائنًا من كان، بأن ينتزعني من بين ذراعَيْها اللتين فيهما ملاذي.

وأمي على فراش الانتظار تبتسم، سعيدة، غائبة.

***

تمَّت

t.me/qurssan

t.me/qurssan

شاب يقرِّر التنقيب في ماضي أسرته المُسلِمة التي التجأت إلى البرازيل هربًا من ويلات الحرب وهو لا يزال طفلًا صغيرًا. بين نوبات هذيان الأم التي ناءت ذاكرتها بأثقال المرض، وحكايات الخالة التي حاولَت النسيان سدى، يفتِّش إمانويل عن أبيه الغائب محاولًا انتشاله من أطلال الحرب وغياهب الماضي.

يسبر الكاتب أغوار النفس الإنسانية بلغة رشيقة مُكثَّفة، حتى يمكن القول بأن كل عبارة بين دفتي هذا الكتاب تحمل في حناياها قصة حافلة. يُشرِكنا المُؤلِّف معه في كتابة روايته البديعة التي تمسّ قلوب القرَّاء أيًا كان انتماؤهم، مُؤكِّدًا على أن مشاعر الألم والفقد والهجران من القواسم التي يشترك فيها جميع البشر.

الناشر

روبرتسون فريزيرو: كاتب روائي ومسرحي وشاعر برازيلي. صدرَت روايته الأولى «بعيدًا عن القرى» سنة ٢٠١٥، فقوبِلَت بحفاوة القرَّاء والنقَّاد، وحصلَت على جائزة كتاب العام المُقدَّمة من رابطة الكُتَّاب AGES، كما وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة ساو باولو وجائزة أسوريانوس.

روبرتسون فريزيرو

بعيدًا عن القرى

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com

t.me/qurssan